البيان المبدي

لمعاني لامية ابن الوردي

رحمة الله عليه

لفضيلة الشيخ

أبي بكر بن عبد الله الحدادي

حفظه الله ونفع به الإسلام والمسلمين

البيان المبدي

لمعاني لامية ابن الوردي

البيان المبدي

لمعاني لامية ابن الوردي

للشيخ الفاضل الفقيه

أبي بكر بن عبد الحميد

بسم الله الرحمن الرحيم

البيان المبدي

لمعاني لامية ابن الوردي

الطبعة الأولى

١٤٤٧ هـ

للشيخ الفاضل الفقيه

أبي بكر بن عبده الحمدي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فنستفتح في هذا اليوم، يوم الثلاثاء الثالث من شهر شوال، لعام ستة وأربعين وأربعمائة وألف هجرية، لامية ابن الوردي رحمة الله عليه، وهي لامية نافعة مفيدة، نصح فيها الناظم بالنصائح الكثيرة النافعة المفيدة.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه.

أمَّا بعد:

فقد وفقني الله تعالى ويسر لي بفضله وكرمه أن أدرس "**منظومة ابن الوردي**" وهي منظومة نافعة مفيدة فيها الحث على معالي الأخلاق والابتعاد عن سفاسفها مع سلاسة في ألفاظها، وكان تدريسها في مسجد "الفاروق" في مدينة إب من بلاد اليمن، وقد تم تسجيل الدروس ونشرها بحمد الله.

ثم بعد ذلك رغب أخونا: أبو الحسن علي بن الحسن محروس بتفريغها ووكل من يقوم بذلك فجزاه الله خيرًا وكتب الله أجره، ففرغت بحمد الله ثم قمت بعد ذلك بالنظر فيها ومراجعتها، فله الحمد والمنَّة.

كتبه

أَبُوبَكربنعَبدهبنعَبْدِاللهِبْنحَامِدالحَمَّادِي.

في يوم السبت التاسع عشر من شهر شعبان

لعام سبع وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة

ترجمة مختصرة لابن الوردي

اسمه: عمر بن المظفر بن عمر بن محمد الوردي، الحلبي الشافعي، مات مطعونًا، أي مات بالطاعون في مدينة حلب في سنة تسع وأربعين وسبعمائة.

وهو من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو من علماء الشافعية، وله المصنفات الكثيرة والمنظومات النافعة، وشعره من أحسن الشعر.

وقد نظم "الحاوي الصغير" في فقه الشافعية بمنظومة سماها "البهجة الوردية" أكثر من خمسة آلاف بيت، أثنى عليه علماء الشافعية ثناء بالغًا، وشرحها من شرحها منهم.

ومعه أيضًا التاريخ المشهور بتاريخ ابن الوردي، واختصر "الألفية" لابن مالك في علم النحو وشرحها، واختصر أيضًا "ملحة الإعراب".

وله منظومات في النحو، وكان من البارزين في علم النحو واللغة، وألف أيضًا في الطاعون.

وقضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه أن مَنَّ عليه بأن يموت به، فإنه مات بالطاعون، والطاعون شهادة.

متن القصيدة

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١) اعتــزلْ ذِكــرَ الأَغَــاني والغَــزَلْ ❁ وقُــلِ الفَصْــلَ وجانــبْ مَــنْ هَــزَلْ
٢) ودَعِ الــذِّكرَى لأيــامِ الصِّــبا ❁ فَلأَيــامِ الصِّــبا نجَــمٌ أفَــلْ
٣) إنْ أهنــأ عِيشــةٍ قَضَّــيتُها ❁ ذَهبــتْ لــذَّاتُها وَالإثــمُ حَــلْ
٤) واتــرُكِ الغــادَةَ لاَ تحفــلْ بهــا ❁ تُمــسِ في عِــزٍّ رفيــعٍ وتُجَــلْ
٥) وَافتكــرْ في مُنتهَــى حُســنِ الْــذَّي ❁ أنْــتَ تهَــواهُ تجــدْ أمــراً جَلَــلْ
٦) وَاهجُــرِ الخَمْــرةَ إنْ كُنــتَ فتــىً ❁ كَيــفَ يَسعى في جُنــونٍ مَــنْ عَقَــلْ
٧) واتَّــقِ اللهَ فَتقــوْى اللهِ مَــا ❁ جــاورتْ قَلــبَ امــرئ إلا وَصَــلْ
٨) لَــيسَ مــنْ يَقطــعُ طُرقــاً بَطــلاً ❁ إنمــا مــنْ يتَّقِــي اللهَ البَطَــلْ
٩) صــدِّقِ الشَّــرعَ وَلاَ تــركنْ إلــى ❁ رَجــلٍ يَرَّصُــدُ في الْلَّيــلِ زُحــلْ
١٠) حَــارتِ الأَفْكــارُ في حكمــه مَــنْ ❁ قَــدْ هَــدانا ســبْلنا عَــزَّ وَجَــلْ
١١) كُتِبَ المــوتُ علــى الخَلــقِ فكــمْ ❁ فَــلَّ مِــن جَــيشٍ وأَفنَــى مِــنْ دُوَلْ
١٢) أيــنَ نمُــرودُ وكنعــان ومَــنْ ❁ مَلَــكَ الأَرْضَ وَوَلــيَّ وعَــزَلْ
١٣) أَيــنَ عــادٌ أَيــنَ فِرعَــونُ وَمَــنْ ❁ رَفــعَ الأَهَــرامَ مِــنْ يسـمعْ يَخَــلْ
١٤) أَيــنَ مَــنْ سَــادوا وشَــادوا وبَنَــوا ❁ هَلَــكَ الكُــلُّ وَلــم تُغــنِ القُلَــلْ
١٥) أَيــنَ أَرْبــابُ الحِجَــى أَهْــلُ النُّهــى ❁ أَيــنَ أَهْــلُ العلــمِ والقــومُ الأُوَلْ
١٦) ســيُعيدُ اللهُ كُــلاً مِــنهمُ ❁ وَسَــيَجزِي فَــاعِلاً مــا قــد فَعَــلْ

١٧) أيْ بُنـيَّ اسـمعْ وَصَـايَا جَمعَـتْ ❁ حِكمـاً خُصَّـتْ بِهـا خَيـرُ المِلـلْ
١٨) اطلـب العِلـمَ وَلاَ تَكسَـلْ فَمَـا ❁ أَبعَـدَ الخَيـرَ عَلـى أهـلِ الكَسَـلْ
١٩) وَاحتَفِـلْ للفقـهِ فِي الـدِّينِ وَلا ❁ تَشَّـتغِلْ عَنـهُ بِمِـالٍ وخَـوَلْ
٢٠) وَاهْجُـرِ النَّـومَ وَحصِّـلهُ فمـنْ ❁ يَعـرفِ المَطلُـوْبَ يَحقِـرْ مـا بَـذَلْ
٢١) لاَ تَقـلْ قَـدْ ذَهَبـتْ أربابُـهُ ❁ كُـلٌّ مِـنْ سـارَ عَلـى الـدَّربِ وَصَـلْ
٢٢) فِي ازدِيـادِ العِلـمِ إِرغْـامُ العِـدى ❁ وَجمَـالُ الْعِلـمِ إِصـلاَحُ الْعَمـلْ
٢٣) جَمِّـلِ المَنطِـقَ بـالنَّحو فَمـنْ ❁ يحُـرَمِ الإِعـرَابَ بـالنُّطقِ اخَتَبـلْ
٢٤) انظُـمِ الشِّـعرَ وَلاَزِمْ مَـذْهَبِي ❁ فِي اطِّـراحِ الرَّفـدِ لاَ تبـغِ النَّحَـلْ
٢٥) فَهـوَ عُنـوانٌ عَلَـى الْفَضـلِ وَمَـا ❁ أَحسَـنَ الشِّـعرَ إِذَا لـمَ يُبتـذَلْ
٢٦) مَاتَ أهلُ الْفَضلِ لـم يَبقَ سِوى ❁ مُقـرفٍ أَوْ مَـنْ عَلَـى الأَصْـلِ اتَّكـلْ
٢٧) أَنَـا لاَ أَخْتَـارُ تَقبِيـلَ يـدٍ ❁ قَطْعُهـا أَجمَـلُ مِـنْ تِلـكَ القُبَـلْ
٢٨) إِنْ جَزتْنِي عَنْ مَديحِي صِرتُ فِي ❁ رقِّهـا أَوْ لاَ فَيكفِينـي الخَجَـلْ
٢٩) أَعـذُبُ الأَلْفَـاظِ قَـولِي لَـكَ: خُـذْ ❁ وَأَمَـرُّ اللفـظِ نُطقـي بِلَعَـلّ
٣٠) مُلـكُ كِسـرى تُغنـي عَنـهُ كِسْـرةٌ ❁ وَعَـنِ الْبَحْـرِ اجْتـزاءٌ بالوَشَـلْ
٣١) اَعتَـبِر نحَـن قَسَـمنَّا بَيَـنَهُمُ" ❁ تَلقَـهُ حَقَـا وبـالحق نَـزْلْ
٣٢) لَيْسَ مَا يَحْوِي الْفَتَى مِنْ عَزْمِه ❁ لا وَلا مَـا فَـاتَ يَوْمًـا بِالْكَسَـلْ
٣٣) اطْـرَحِ الـدُّنيا فَمـنْ عَادَاتِهـا ❁ تَخفِـضُ العـالِيْ وتُعلـي مَـنْ سَـفَلْ
٣٤) عَيشَـةُ الرَّاغـبِ فِي تحَصِـيلِها ❁ عَيشَـةُ الْجاهـلِ فِيهَـا أَوْ أَقَـلْ
٣٥) كَـمْ جَهـولٍ بَـاتَ فَيهـا مُكثـراً ❁ وَعَلـيمٍ بَـاتَ مِنهـا فِي عِلَـلْ

٣٦) كَمْ شجاعاً لم يَنلْ فيها المُنى ❁ وَجَبانٍ نَالَ غاياتِ الأَمَلْ
٣٧) فَاتركِ الحيلَةَ فِيهَا وَاتَّكِلْ ❁ إنما الحيلَةُ في تَركِ الحِيَلْ
٣٨) أَيُّ كَفٍّ لَمْ تَنَلْ مِمَّا تُفِدْ ❁ فَرَمَاهَا اللهُ مِنْهُ بِالشَّلَلْ
٣٩) لاَ تَقُلْ أَصْلي وَفَصلي أَبداً ❁ إنما أصْلُ الفَتى مَا قَدْ حَصَلْ
٤٠) قَدْ يسُودُ المرءُ مِنْ دُونِ أبٍ ❁ وَبِحُسنِ السَّبْكِ قدْ يُنفَى الدَّغَلْ
٤١) إنما الْوردُ مِنَ الشَّوكِ وَمَا ❁ يَنبُتُ النَّرجِسُ إلاَ مِنْ بَصَلْ
٤٢) غَيرَ أَني أَحمدُ اللهَ عَلى ❁ نَسبي إذْ بِأَبِي بِكَرِ اتَّصلْ
٤٣) قِيمةُ الإِنْسانِ مَا يُحسنُهُ ❁ أكثَرَ الإِنسانُ منهُ أو أقَلْ
٤٤) أُكْتُمِ الأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنَىً ❁ وَاكْسَبِ الْفِلْسَ وَحَاسِبْ مِنْ مَطَلْ
٤٥) وَادَّرِعْ جَدًّا وَكَدًّا وَاجْتَنِبْ ❁ صُحْبَةَ الْحَمْقَى وَأَرْبَابَ الدُّوَلْ
٤٦) بَيْنَ تَبْذِيرٍ وَبُخْلٍ رَتْبَةٌ ❁ وَكِلا هَذَيْنِ إِنْ زَادَ قَتَلْ
٤٧) لاَ تخُضْ في حَقِ سَاداتٍ مَضَوا ❁ إنهم لَيسَّوا بأهْلِ للزَّلَلْ
٤٨) وَتَغَافَلْ عَنْ أُمورٍ أنه ❁ لم يفُزْ بالحمدِ إلاَ مَنْ غَفَلْ
٤٩) لَيسَ يخلُو المرءُ مِنْ ضدٍّ وَلَو ❁ حَاوَلَ العُزلَةَ في رَأسِ الجبَلْ
٥٠) مِلْ عَنْ النَمَّامِ وازجُرْهُ فَمَا ❁ بلَّغَ المكروهَ إلا مَنْ نَقَلْ
٥١) دارِ جارَ السَّوءِ بِالصَّبرِ وإنْ ❁ لمْ تجدْ صَبراً فَما أحلى النُّقَلْ
٥٢) جَانِبِ السُّلطانَ واحذرْ بَطشَهُ ❁ لاَ تُعانِدْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ
٥٣) لا تَلِ الأحكامَ إنْ هُمْ سَأَلُوا ❁ رَغْبَةً فِيكَ وَخَالِفْ مَنْ عَذَلْ
٥٤) إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ لِمَنْ ❁ وَلِيَ الأَحْكَامَ هَذَا إِنْ عَدَلْ

٥٥) فَهُوَ كَالْمَحْبُوسِ عَنْ لَذَّاتِهِ ❁ وَكِلا كَفَّيْهِ فِي الْحَشْرِ تُغَلّ
٥٦) إِن لِلنَّقْصِ وَالاسْتِثْقَالِ فِي ❁ لَفْظَةِ الْقَاضِي لَوَعظًا وَمَثَل
٥٧) لا تَوَازِي لَذَّةُ الْحُكْمِ بِمَا ❁ ذَاقَهُ الشَّخْصُ إِذَا الشَّخْصُ انْعَزَلْ
٥٨) فَالْوِلايَاتُ وَإِنْ طَابَتْ لِمَنْ ❁ ذَاقَهَا فَالسُّمُّ فِي ذَاكَ الْعَسَلْ
٥٩) نَصَبُ الْمنْصِبِ أَوْهِى جَلَدِي ❁ وَعَنَائِي مِنْ مَدَارَاةِ السَّفَلْ
٦٠) قَصِّرِ الآمَالَ فِي الدُّنيا تفُزْ ❁ فَدْلِيلُ الْعَقلِ تقصيرُ الأَمَلْ
٦١) إِنْ مَنْ يطلِبهُ المْوتُ عَلى ❁ غِرَّةٍ مِنهُ جَديرٌ بِالوَجَلْ
٦٢) غِبْ وزُرْ غبا تزِدْ حُبًّا فَمنْ ❁ أكثرَ التَّردَادَ أَقصاهُ المَلَلْ
٦٣) لاَ يَضُرُّ الْفَضلَ إِقلالٌ كَما ❁ لاَ يَضرُّ الشَّمسَ إطْباقُ الطَّفَلْ
٦٤) خُذْ بِنَصْلِ السَّيْفِ وَاتْرُكْ غِمدَهُ ❁ وَاعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَى دُونَ الْحُلَلْ
٦٥) حُبُّكَ الأَوْطانَ عَجزٌ ظَاهِرٌ ❁ فَاغْتربْ تلقَ عَنْ الأَهْلِ بَدَلْ
٦٦) فَبِمُكثِ الْمَاءِ يَبْقَى آسِنًا ❁ وَسُرَى الْبَدْرِ بِهِ الْبدرُ اكْتَمَلْ
٦٧) أَيُّهَا الْعَائِبُ قُولي عبثًا ❁ أن طيبَ الْوردِ مُؤذٍ لِلجُعَلْ
٦٨) عَدِّ عَن أسهُمِ قَولي وَاستتِرْ ❁ لاَ يصيبك سَهمٌ مِن ثُعَلْ
٦٩) لاَ يَغرَّنَّكَ لَيْنٌ مِنْ فتىً ❁ إنَّ للحياة لينًا يُعتزلْ
٧٠) أَنا مِثلُ المْاءِ سَهلٌ سَائغٌ ❁ وَمتى أسخن آذى وقَتَلْ
٧١) أَنا كَالخيَزور صَعبٌ كسْرهُ ❁ وَهُوَ لَدْنٌ كَيفَ ما شِئتَ انفتَلْ
٧٢) غَيرَ أني في زَمانٍ مَنْ يكنْ ❁ فيهُ ذو مَالٍ هُوَ المولَى الأَجَلْ
٧٣) وَاجبٌ عِند الْورى إكرامُهُ ❁ وَقليلُ المالِ فيهم يُستقلْ

٧٤) كُـلُّ أهـلِ العصـرِ غُمـرٌ وَأَنَـا ❁ مِـنهُمُ فَـاترُكِ تَفَاصِـيلَ الجُمَـلْ

٧٥) وَصـــلاةُ اللهِ ربـــي كُلَّمـــا ❁ طَلَـعَ الشَّـمسُ نهَـاراً وَأَفَـلْ

٧٦) لِلـذِّي حَـازَ العُلـى مِـنْ هَاشِـمٍ ❁ أحمَـدَ المُختـارِ مَـنْ سَـادَ الأَوْلْ

٧٧) وعلـى آلٍ وصـحبٍ سـادتٍ ❁ لـيس فـيهم عـاجزُ إلا بطـل

شرح القصيدة

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصيدته اللامية:

١) اعتــزلْ ذِكــرَ الأَغَــاني والغَــزَلْ ❁ وقُــلِ الفَصْــلَ وجانــبْ مَــنْ هَــزَلْ

الشرح:

(**واعتزل**) أي: تنحَّ، فالاعتزال بمعنى: التنحي.

(**ذِكرَ**): المراد به السماع، (**الأَغَاني**): هو الطرب بالكلام الموزون وبغيره.

والغناء إذا أطلق في كلام العلماء فالمراد به المذموم منه، وهو ما كان فيه ذكر الغزل ووصف النساء ونحو ذلك مما يذم.

والأغاني مفسدة للقلوب، وهي داخلة في لهو الحديث الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

وثبت عن ابن مسعود أنه كان يقول: لهو الحديث هو الغناء، والذي لا إله غيره.

وهو ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل. فهو من أعظم الأدواء المفسدة للقلوب، فينبت النفاق في القلب، وهذا من أخطر الأمراض ومن أشدها؛ فإن النفاق إذا تمكن في القلب ربما ينتقل العبد من النفاق الأصغر إلى النفاق الأكبر، ويخرج عن ملة الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

فهو منبت للنفاق، وهو رقية الشيطان. والأغاني تصد العبد عن الخير، وأعظم الخير هو القرآن. فالأغاني تصد العبد عن سماع القرآن وعن الانتفاع به، وهي لهو الحديث، فهي تلهي عن الخير وتصد عنه، وهي رقية الزنا.

فالأغاني تهيج النفوس المريضة إلى الفواحش والمنكرات، فهي ضد العفة والنزاهة. فالأغاني تدعو إلى كل رذيلة وقبيحة، ومن وقاه الله عَزَّوَجَلَّ شرها فقد وقي شرًا عظيمًا.

والكلام في الأغاني وفي مفاسدها وفي أضرارها كلام كثير، وقد ألف العلماء في ذلك المؤلفات الكثيرة، وتكلموا في مضارها ومفاسدها.

ومن أحسن من تكلم على ذلك العلامة ابن القيم رحمة الله عليه في "إغاثة اللهفان" وفي غيرها من المصنفات.

والنفس إن كانت متجهة إلى هذا الأمر فتحب الأغاني، وتحب الكلام الحسن، أعني الكلام الموزون الذي حسن نظمه، وتحب الكلام المسجوع والموزون بالصوت الحسن، فعليها أن تتجه إلى القرآن، فتستبدل القبيح بالحسن، بل بأحسن الكلام، وهو القرآن. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي الصحيحين: من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَتَغَنَّى بِالقُرْآنِ**»، أي: ما استمع الله عَزَّوَجَلَّ لشيء كاستماعه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن.

فالتغني بالقرآن عمل صالح، فإذا تغنى العبد بالقرآن ازداد إيمانًا، وزال النفاق من قلبه، وحصل له الشفاء من كثير من الأمراض، واهتدى إلى الصراط المستقيم، فينال بذلك جميع الخير.

فقال الناظم رحمة الله عليه: (**اعْتَزِلْ ذِكْرَ الْأَغَانِي وَالْغَزَلْ**)، وهذه عزلة محمودة، فالعزلة منها ما يحمد ومنها ما يذم. فالاعتزال عن الباطل عزلة محمودة، وهكذا الاعتزال عن أهل الباطل، وما ذكر ها هنا هو الاعتزال عن الباطل؛ فإن الأغاني والغزل من الباطل، فاعتزال الباطل محمود وواجب، وهكذا اعتزال أهل الباطل محمود وواجب، وهكذا اعتزال الفتن محمود وواجب.

وأما العزلة عن الخير وعن أهل الخير فهي عزلة مذمومة. فالاعتزال الذي يقي به العبد نفسه من الشر أو مما لا خير فيه فإنه اعتزال شرعي محمود.

وأما الاعتزال الذي يمنع العبد من الخير فهو اعتزال مذموم، كالذي يعتزل الناس فلا يحضر مجالس العلم، ولا يشهد الجمع والجماعات، ولا يشهد الحج والعمرة مع المسلمين، ولا يشهد الجهاد في سبيل الله ضد الكافرين بحجة الاعتزال، فهذا اعتزال مذموم، فالعزلة منها ما يحمد ومنها ما يذم، وهذا الذي ذكره المؤلف ها هنا من العزلة المحمودة.

وقد ذكر ابن الجوزي في "صيد الخاطر" أن الجاهل إذا اعتزل لا يستفيد من عزلته إلا ما يستفيد الخيل من الإسطبل، **يعني**: أكل وشرب ونوم وقضى حاجة.

و(**الغزل**): المراد به محادثة النساء ومراودتهن، وهذا مفسد للقلوب. فعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول لنساء النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَلَا

تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، كل هذا من أجل اتقاء فتنة النساء، فمغازلة النساء بالحديث مدعاة للشر والفاحشة.

وزنا الفرج يبدأ بالتدرج، فيبدأ بزنا البصر، ويتدرج إلى زنا الفرج. فروى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ**». متفق عليه، فالغزل مفتاح للشر، ومفتاح للفاحشة.

فلهذا قال: (**وَقُلِ الْفَصْلَ**): فبعد أن حذر من الكلام الباطل المضر، أمر بالكلام النافع المفيد. فالأغاني من الكلام الباطل الفاسد المفسد، وهكذا الغزل من الكلام الباطل المضر المفسد، قال: (**وَقُلِ الْفَصْلَ وَجَانِبْ مَنْ هَزَلْ**)، أي: قل الفصل أي الجد، وجانب من هزل، والفصل يأتي بمعنى الجد الذي هو عكس اللعب، ويأتي معنى الذي يفصل بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال، أي الحاكم الذي يفصل بين الحق والباطل والهدى والضلالة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣-١٤]. فهكذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ في شأن القرآن: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، أي: جد، أو أنه يفصل الله عَزَّوَجَلَّ فيه بين الحق والباطل والهدى والضلال. ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾، أي: وما هو باللعب، فكلام الله عَزَّوَجَلَّ جد وليس بلعب، وفصل أيضًا يفرق الله عَزَّوَجَلَّ فيه بين الحق والباطل والهدى والضلال.

فهذا هو الواجب على المسلم: أن يقول الفصل، وأن لا يكون من اللاعبين في دينه. قال الله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ

الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، فهؤلاء يجتنبون ويبتعد عنهم، الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، فهذا شأن الجاهلين، والعالم التقي يبتعد عن الهزل واللعب، ويستعمل في أمره الجد، فيقول الكلام الحق الجد الذي ليس فيه باطل.

(**وَجَانِبْ مَنْ هَزَلْ**) أي: ابتعد عن أهل الهزل، أي عن أهل اللعب. فما خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ للهو واللعب. قال الله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾، وهؤلاء هم الكفار الذين فتنوا بالحياة الدنيا وبشهواتها وملذاتها وباللهو واللعب. أما أنت أيها المسلم فنزه نفسك عن ذلك، فلم تخلق لتلعب، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وقال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي: لا يؤمر ولا ينهى.

فلهذا قال: (**وَجَانِبْ مَنْ هَزَلْ**) أي: ابتعد عنه، كن في جانب وهو في جانب آخر. فإن الشخص يتأثر بجليسه، فإن جالس أصحاب اللعب صار منهم، وإن جالس أهل العلم والخير والفضل صار منهم. وفي المسند وغيره من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**».

وفي الصحيحين من حديث أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكِيرِ الْحَدَّادِ، لَا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً». ولهذا قال: (وَجَانِبْ مَنْ هَزَلْ)، أي: كن في جانب وهو في الجانب الآخر، وهذا يدل على معنى الابتعاد.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢) ودَعِ الذِّكرَى لأيامِ الصِّبا	فَلأيامِ الصِّبا نجمٌ أفَلْ

الشرح

(ودَعِ الذِّكرَى لأيامِ الصِّبا) والصبا تأتي على معنى الميل إلى الجهل، فـ"صَبا" أي مال إلى الجهل، ويأتي الصبا والمراد به أول العمر، لكن أول عمر العبد هو فيه غير مكلف، وهو سن الصغر. فالذي يظهر أنَّ المقصود بأيام الصبا أي: أيام الميل إلى الجهل، "صَبا" أي مال إلى الجهل، فتلك الأيام التي كنت فيها من الجاهلين، فكنت تميل فيها إلى الجهل. فدع تلك الأيام، ولا تحدث نفسك بها، ولا تتزين تلك الأيام في قلبك. فتلك الأيام أيام شر قد أفل نجمها، أي ذهب وغاب. فلا ترجع إليها ولا تحدث نفسك بها، وإنما الواجب عليك أن تتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ مما حصل منك في الأيام الماضية، أيام الجهل، حين كنت تصبو إلى الجهل، وإلى الأغاني وإلى الغزل، وإلى غير ذلك من الأمور.

فلا تبقى تلك الذكريات في ذهنك مستحسنة؛ فإن الإنسان إذا استحسن الباطل القديم دعته نفسه إليه - والعياذ بالله – دعته نفسه إلى أن يرجع إلى ذلك الباطل الذي كان عليه في أيام الجهل.

قال رحمة الله عليه:

٣) إنْ أهنأَ عِيشةٍ قَضَّيتُها	ذَهبتْ لذَّاتُها وَالإثمُ حَلْ

الشرح:

ثم بيَّن عليه رحمة الله عليه أن أطيب عيشة – والعيشة ضَرب من العيش أي نوع منه – أطيب عيشة كانت في معصية الله عَزَّوَجَلَّ في أيام الأغاني وفي أيام الغزل، فأهنى عيشة قضاها في الحرام في الأيام السالفة، ذهبت لذاتها، وهذا يجده الإنسان في نفسه، فاللذات الماضية ذهبت، لا يجد الإنسان طعمًا للذة ماضية كانت من الحرام، فذهبت تلك اللذة ولا تبقى اللذة مع العبد، لكن الإثم حل، فهو باق في قلبك، فأثر الذنب باق في قلبك وضرره حاصل عليك إن لم تتب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وهكذا الخطيئة أيضًا حلت في الصحف، فهي مدونة ومكتوبة. قال الله تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. فاللذات مهما كانت عظيمة في الحرام فإنها تذهب ويبقى الإثم، فلا خير في لذة ذهبت وبقي إثمها.

والعكس في ذلك الطاعات، فإن مشقة وتعب الطاعة ذهب، لكن بقي الثواب عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو الخير، وهذا هو الذي ينتفع به العبد، فيبقي له من العمل ثوابه، وتذهب شدته وآلامه وثقله.

فإن أطعت الله عَزَّوَجَلَّ وتعبت، فالتعب يزول. فكم قد صمت، وكم قد صليت، وكم قد قرأت من القرآن، وكم قد فعلت من الخير وصبرت على تلك الشدائد التي مرت عليك، وقد ذهبت تلك المتاعب فلا تجد شدتها في بدنك ولا في قلبك، والثواب باق لك.

وفي المقابل، فإنَّ تلك المعاصي والسيئات التي فعلتها ووجدت لذتها في الأيام الماضية، فقد ذهبت وبقي عليك إثمها. فلهذا لا يبقى العبد متذكرًا لأيام الصبا، وللذات الماضية، إلا على سبيل الندم والتوبة، فهذا من التذكر المحمود، فيتذكر على وجه التوبة والندم، فيتذكر ما حصل منه ويدعو ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يتوب عليه، ويستغفره مما حصل منه، فهذا تذكر محمود.

وأما تذكر المستحسن لتلك الأيام وأنَّها كانت أيامًا جميلة، وأيام سرور، وأيام بهجة، فهذا تذكر مضر؛ لأنه يدعوه إلى العودة إلى ما كان يعمله في تلك الأيام الماضية، أيام الجهل والمعصية.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤) واتــرُكِ الغــادَةَ لاَ تحفــلْ بهــا ❁ تُمــسِ في عِــزٍّ رفيــعٍ وتُجَــلْ
٥) وَافتكــرْ في مُنتهَــى حُســنِ الْــذَّي ❁ أنْــتَ تهَــواهُ تجــدْ أمــراً جَلَــلْ

الشرح:

قال رحمة الله عليه: (وَاتْرُكِ الْغَادَةَ): والغادة هي الفتاة الناعمة، (لَا تَحْفَلْ بِهَا) أي لا تبال بها، (تُمسِ في عِزٍّ رفيعٍ وتُجَلْ) أي يعظم قدرك.

والمؤلف في هذا البيت نصح بترك الغادة، وهي الفتاة الناعمة، فحذر من عشق النسوان، كما حذر بعد ذلك من عشق المردان، فحذر من العشقين: من عشق النسوان، ومن عشق المردان. والعشق داء فتاك، وسم زعاف، مهلك لدين العبد ولدنياه. وعلى قدر توحيد العبد لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تكون نجاته من العشق، وكلما تمكن الشرك من قلبه تمكن العشق، فالعشق والشرك صنوان، ولهذا يعظم العشق عند المشركين، وسواء ما يتعلق بعشق النسوان أو بعشق المردان.

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ العشق في كتابه مع أهل الشرك، فذكر عشق امرأة العزيز قبل إسلامها في سورة يوسف، وذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنه نجى نبيه يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من هذا المرض فقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ وفي قراءة: "المُخَلِصِين"، فالإخلاص من أسباب النجاة من العشق، ومن كان مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ نجاه الله عَزَّوَجَلَّ من هذا الداء.

وذكر الله عَزَّوَجَلَّ عشق المردان عن قوم مشركين، وهم قوم لوط عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. فالعشق قرين الشرك.

وإذا تمكن العشق وعظم في القلب قيل له إنه متيم، والتيم بمعنى التعبد، وتيم الله بمعنى عبد الله، فيصير عبدًا لمن يحب ويعشق، وربما تقرب إلى معشوقه بكل ما يستطيع من المحاب التي لا يتقرب بها إلَّا إلى ربه عَزَّوَجَلَّ.

وربما يبتعد عن مساخط من يحب، وقد لا يفعل هذا مع ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بل ربما يبارز ربه بالمعاصي والسيئات، ويترك كثيرًا من الطاعات والقربات التي يحبها الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا اتجه إلى محبوبه ومعشوقه إذا به يتقرب إليه بكل ما يستطيع من المحاب، ويبتعد عن كل ما يؤذي محبوبه وما يكرهه، فيصرف العبادات لغير الله عَزَّوَجَلَّ، ويعلق قلبه بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعظم من تعليقه بالله تعالى، ويحب معشوقه أعظم محبته لربه عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو الشرك العظيم الذي لا يغفره الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

وقد يشتد العشق بالعبد حتى يصل به إلى مرتبة الوله، وهو شبيه بالوسواس، فيصير كالمجنون الذي لا عقل له. فهناك من العشاق من ذهب عقله، وصار يتيه في الأرض كالمجانين، وهنالك من قتل نفسه، ففيه خسران الدين والدنيا. فالعشق فيه خسران الدين والدنيا، وسواء ما يتعلق بعشق النسوان أو بعشق المردان. وعشق المردان أضر وأخبث، والفرق بينهما كالفرق بين الزنا واللواط، ففاحشة اللواط أشد من فاحشة الزنا، وهكذا الفرق بين العشقين.

وقد وقع في عشق المردان بعض من يدعي التنسك من أهل التصوف، وصاروا يتقربون إلى الله عَزَّوَجَلَّ بمصاحبة الأحداث والمردان، ولهم في ذلك القصص العجيبة والأخبار الغريبة. وقد حذر أئمة السلف من مصاحبة

الأحداث، وهم المردان، حتى يسلم قلب العبد من أن يتعلق بغير ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبالغ في ذلك أئمة السلف في التحذير من ذلك حتى إنه ذُكِر عن الإمام أحمد: أنَّ رجلاً جاء مع ابنٍ له وكان حسن الوجه، فقال له: لا تأتي به مرة أخرى، وحصل لشخص آخر جاء مع ابن أخته، فقال له: لا تمشي معه في طريق لا يهلك الناس فيك، **وقال رحمة الله عليه**: أدركنا على ذلك مشائخنا، أي الأئمة الماضين من السلف. وكان جماعة من السلف يقولون: مع الجارية شيطان، ومع الأمرد شيطانان، وكان بعضهم يقول: ما أنا بأخوف على الناسك من سَبُعٍ كخوفي عليه من أمرد يجلس إليه، إلى غير ذلك من الكلام الكثير الذي ذكره أئمة السلف وسطروه في كتبهم.

وقد ذكر جملة من ذلك العلامة ابن الجوزي في "تلبيس إبليس"، والعلامة ابن القيم في "إغاثة اللهفان"، وشيخ الإسلام ابن تيمية في مواطن متعددة من كتبه، وهكذا في المجموع الذي جمع له وهو "مجموع الفتاوى".

فكلام السلف في ذلك كثير؛ وذلك لما فيه من الشر المستطير؛ فإن هذا المرض إذا تمكن من القلب أفسد العقل وأفسد العمل: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

وهذا ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في سياق من فتن بالمردان من قوم لوط، فهم في سكر قد زالت عقولهم وهم يعمهون، ففسدت أعمالهم وفسدت عقولهم، فمن تمكن منه هذا المرض فإنه يخسر الدنيا والآخرة، فلا يقوم بأمر دنياه ولا يقوم بأمر آخرته.

فلهذا على العبد أن يسارع في معالجة نفسه من أول الأمر، وأن يقطع أسباب الشر عن نفسه من أولها؛ فإن مرض العشق أشد من الزنا، وأشد من اللواط؛ فإنه يوقع العبد في الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ -والعياذ بالله- فالفاحشة من غير عشق أهون من العشق ولو من غير فاحشة، وسواء كان ما يتعلق بفاحشة الزنا أو فاحشة اللواط، فالعشق من الأمراض الخطيرة المهلكة.

فنصح ابن الوردي رحمة الله عليه بهذه النصائح الثمينة فيما يتعلق بالبابين: بعشق النسوان أو بعشق المردان.

وكلما نزه العبد نفسه عن هذه القاذورات، كلما عظم قدره عند ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعند الناس. وكما قال بعض من مضى: ما سقط عبد من عين الله عَزَّوَجَلَّ إلا ابتلاه بصحبة هؤلاء الأنتان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦) وَاهجُرِ الخَمْرَةَ إنْ كُنتَ فتىً	كَيفَ يَسعى في جُنونٍ مَنْ عَقَلْ

الشرح:

(**واهجر الخمرة**) أي ابتعد عنها وجانبها (**إن كنت فتى**) والفتى في عرف المتأخرين مأخوذ من الفتوة، والفتوة عندهم هي التحلي بمكارم الأخلاق.

وأما الفتى في لغة العرب فالمراد به الحدث كما قال الله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، فالفتى في لغة العرب بمعنى الحدث، لكن اشتهر عند كثير من المتأخرين، ولا أقصد بالمتأخرين في هذه الأزمان، وإنما الذين تأخروا بعد عصر الصحابة والتابعين،

اشتهر عندهم الفتوة والفتى على معنى التحلي بالأخلاق الكريمة، وهذا مراد ابن الوردي رحمة الله عليه في قوله: (**إِنْ كُنْتَ فَتَى**)، فإن الخمرة جماع الأخلاق القبيحة والسيئة، وهي خلاف الفتوة؛ فإن الفتوة المراد بها التحلي بالأخلاق الفاضلة والأخلاق الكريمة والحسنة.

(**كَيفَ يَسعى في جُنونٍ مَنْ عَقَلْ**) وهذا مما يتعجب منه: أن يسعى العاقل في الجنون، وقد من الله تعالى عليه بالعقل، وشارب الخمر يسعى في الجنون وقد من الله عليه بالعقل، فحاله مما يتعجب منها.

وقد حرم الله عَزَّوَجَلَّ الخمر لأضرارها الكثيرة، ومن جملة ذلك: أنها مفسدة للعقل، وأيضًا تورث العداوة والبغضاء، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وأيضًا تُهتك الأعراض وتكشف العورات، وتكشف أيضًا السر المكتوم، فكم من سر مكتوم كشفه السكران في وقت سكره، وهكذا تورث العداوة في أوساط الأصحاب والعشائر والقبائل، وربما ثارت الحروب بسببها، وربما سفكت الدماء بسببها، وقد يتلف الشخص ما له، ويقتل ولده بسبب السكر. فمن أجل هذا حرمها الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد تدرج الله عَزَّوَجَلَّ في تحريمها؛ وذلك لأن الخمر كان منتشرًا في الأزمان السابقة، وكانت القلوب متعلقة به، فحصل التدريج في تحريمها من أجل فطام النفوس منها، فنهاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن شربها في الأوقات القريبة من الصلوات، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

وبين الله عَزَّوَجَلَّ ما فيها من المفاسد الراجحة وذلك قبل أن يصرح بتحريمها، فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فكان هذا كافيًا لاجتنابها؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ بين أن الإثم فيها أعظم من النفع، فالضرر أعظم من النفع. وبعد ذلك صرح الله عَزَّوَجَلَّ بتحريمها، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]. فهي رجس من عمل الشيطان، يريد الشيطان بها أن يوقع العداوة والبغضاء في أوساط المسلمين، ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون؟

قال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين: "انتهينا، انتهينا". فشقوا جراب الخمر، وكسروا آنية الخمر، وصبوا الخمر في طرقات المدينة، واستجابوا لرب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين نهاهم عنها.

فهي جماع الشر، ولهذا جاء عند النسائي بسند صحيح عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ**». فمرجع الخبائث إليها، وهي أم الخبائث؛ فإن الخمر تدعو إلى كل خلق قبيح وإلى كل شر. قال: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث. ثم ذكر قصة حصلت لناسك من النساك فيمن مضى فقال: «**إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ خَلَا قَبْلَكُمْ تَعَبَّدَ، فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا، فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّا نَدْعُوكَ لِلشَّهَادَةِ، فَانْطَلَقَ مَعَ جَارِيَتِهَا، فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا**

أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ، حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ عِنْدَهَا غُلَامٌ وَبَاطِيَةُ خَمْرٍ، فَقَالَتْ: إِنِّي وَاللهِ مَا دَعَوْتُكَ لِلشَّهَادَةِ، وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لِتَقَعَ عَلَيَّ، أَوْ تَشْرَبَ مِنْ هَذِهِ الْخَمْرَةِ كَأْسًا، أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الْغُلَامَ، قَالَ: فَاسْقِينِي مِنْ هَذَا الْخَمْرِ كَأْسًا، فَسَقَتْهُ كَأْسًا، قَالَ: زِيدُونِي، فَلَمْ يَرِمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا، وَقَتَلَ النَّفْسَ، فَاجْتَنِبُوا الْخَمْرَ، فَإِنَّهَا وَاللهِ لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ، وَإِدْمَانُ الْخَمْرِ إِلَّا لَيُوشِكُ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ».

فاجتمعت له بسببها الخبائث، ولهذا سماها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أم الخبائث. وبعد أن قص القصة قال: فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا تجتمع مع الإيمان إلا ويخرج أحدهما صاحبه.

فهي أم الخبائث، ومن أجل هذا حرمها رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحرمها النبي عليه والسلام، ولعن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شاربها، ولعن في الخمر عشرة.

وفي الصحيحين قال أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ». فيرتفع عنه الإيمان إذا شرب الخمر. وجاء في مسلم عن جَابِرٍ، أَنَّ رَجُلًا قَدِمَ مِنْ جَيْشَانَ – وَجَيْشَانُ مِنَ الْيَمَنِ – فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ شَرَابٍ يَشْرَبُونَهُ بِأَرْضِهِمْ مِنَ الذُّرَةِ، يُقَالُ لَهُ: الْمِزْرُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَ مُسْكِرٌ هُوَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إِنَّ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ» أَوْ «عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ».

فلله عَزَّوَجَلَّ العهد فيمن شرب الخمر ولم يتب إلى الله عز وجل أن يسقيه من طينة الخبال، والخبل بمعنى الفساد؛ وذلك لأنَّه شرب شرابًا حصل له منه

الفساد في عقله وفي دينه وأخلاقه، فكان الجزاء من جنس العمل، فتوعده الله عَزَّوَجَلَّ بطينة الخبال.

ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، كما جاء في الصحيحين من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ**». أي من أصر على شربها فإنه لا يشربها في الآخرة، ومن تاب تاب الله عليه.

والخمر بينه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوله: كل مسكر خمر، كما جاء في مسلم عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»، فلا يختص الأمر بالشجرتين.

وما جاء في مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْخَمْرُ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ: النَّخْلَةِ وَالْعِنَبَةِ**».

فليس المقصود بذلك الحصر، وإنما هو محمول: إما على معنى: أكثر الخمر منهما، أو أشد الخمر وأعلى الخمر عند أصحابه من هاتين الشجرتين، كما يقال: إنما المال الإبل، فليس المراد بذلك الحصر، لكنَّه أشرف المال عند أصحابه. فأعلى الخمر عند أصحابه من الشجرتين.

وقد ذهب أهل الكوفة من الحنفية ومن غيرهم إلى أنَّ الخمر مختص بعصير العنب دون غيره، وغير عصير العنب لا يدخلونه في مسمى الخمر، لكنهم يحرمون الإسكار وإن لم يسموه خمرًا.

وذهبوا في نبيذ الشجرتين –نبيذ الزبيب والتمر– إلى تحريم المسكر منه، سواء كان قليلاً أو كثيرًا، وما سوى الشجرتين فأباحوا القليل الذي يسكر كثيره

ولهذا تكلم العلماء في مذهب أهل الكوفة في هذا الباب، وبينوا خطأهم، ورووا الأحاديث المتكاثرة في رد مذهبهم؛ فإنهم أجازوا القليل الذي يسكر كثيره من غير الشجرتين.

وقد جاء في السنن عن جماعة من الصحابة، كعبد الله بن عمرو بن العاص، وجابر بن عبد الله، وجاء عن غيرهما، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ، فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ».

وفي المسند عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَسْكَرَ مِنْهُ الْفَرَقُ، فَمِلْءُ الْكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ»، والفرق عبارة عن ثلاث آصُع، أي: ما يملأ ثلاثة آصع، وهو بمعنى: ما أسكر كثيره فقليله حرام، فالشيء الذي إذا شرب كثيره حصل منه الإسكار، فلا يجوز شرب القليل منه وإن لم يحصل منه الإسكار. فما كان كثيره يسكر، حرم قليله الذي لا يسكر.

وأما أهل الكوفة، حرموا ذلك في الشجرتين فقط، فحرموا القليل الذي لا يسكر إذا كان كثيره مسكرًا في الشجرتين فقط، وما سوى الشجرتين فإنهم أجازوا القليل الذي لا يسكر وإن كان كثيره يسكر. وليس المراد أنَّ أهل الكوفة أباحوا الإسكار، فهذا لا يبيحه أحد من أهل العلم، فما كان مسكرًا فإنه حرام بإجماع العلماء، لكن تأولوا مثل هذا التأويل الفاسد. والنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد بين معنى الخمر فقال: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ».

وفي الصحيحين أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ»، أي ما غطى العقل.

فالخمر من الخبائث، وهو مفسد للأخلاق، ومورث للعداوة والبغضاء، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، كما ذكر ذلك رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وقد حصلت قصة لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع عمه حمزة، وسببها الخمر، كما جاء في الصحيحين، برواية الحسين بن علي عن أبيه عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (كَانَتْ لِي شَارِفٌ مِنْ نَصِيبِي مِنَ الْمَغْنَمِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَأَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ شَارِفًا أُخْرَى مِنَ الْخُمُسِ، فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَبْتَنِيَ بِفَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاعَدْتُ رَجُلًا صَوَّاغًا مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ أَنْ يَرْتَحِلَ مَعِيَ، فَنَأْتِيَ بِإِذْخِرٍ أَرَدْتُ أَنْ أَبِيعَهُ الصَّوَّاغِينَ، وَأَسْتَعِينَ بِهِ فِي وَلِيمَةِ عُرْسِي. فَبَيْنَمَا أَنَا أَجْمَعُ لِشَارِفَيَّ مَتَاعًا مِنَ الْأَقْتَابِ وَالْغَرَائِرِ وَالْحِبَالِ – وَشَارِفَايَ مُنَاخَتَانِ إِلَى جَنْبِ حُجْرَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ – وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَشْرَبُ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ، وَعِنْدَهُ قَيْنَةٌ تُغَنِّيهِ وَأَصْحَابَهُ، فَقَالَتْ فِي غِنَائِهَا:

أَلَا يَا حَمْزُ لِلشُّرُفِ النِّوَاء ... وهن معقلات بالفناء

(أي مربوطات بالفناء)

ضَعِ السِّكِّينَ فِي اللَّبَّاتِ مِنْهَا ... وَضَرِّجْهُنَّ حَمْزَةُ بِالدِّمَاءِ

(ضع **السكين في اللبات منها**): أي قم بنحرها بوضع السكين في اللبات منها، (وضرجهن حمزة بالدماء)

وَعَجِّلْ مِنْ أَطَايِبِهَا لِشُرْبٍ ... وَقَدِيدًا مِنْ طَبِيخٍ أَوْ شِوَاءِ

فَوَثَبَ حَمْزَةُ إِلَى السَّيْفِ، فَجَبَّ أَسْنِمَتَهُمَا، وَبَقَرَ خَوَاصِرَهُمَا، ثُمَّ أَخَذَ مِنْ أَكْبَادِهِمَا، قَالَ عَلِيٌّ: فَرَجَعْتُ حِينَ جَمَعْتُ مَا جَمَعْتُ، فَنَظَرْتُ إِلَى مَنْظَرٍ

أَفْظَعَنِي، فَلَمْ أَمْلِكْ عَيْنَيَّ حِينَ رَأَيْتُ ذَلِكَ الْمَنْظَرَ مِنْهُمَا، فَقُلْتُ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ فَقَالُوا: فَعَلَهُ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ فِي شَرْبٍ مِنَ الْأَنْصَارِ.

فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعِنْدَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَجْهِي الَّذِي لَقِيتُ، فَقَالَ: «مَا لَكَ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ، عَدَا حَمْزَةُ عَلَى نَاقَتَيَّ، فَأَجَبَّ أَسْنِمَتَهُمَا، وَبَقَرَ خَوَاصِرَهُمَا، وَهَا هُوَ ذَا فِي بَيْتٍ مَعَهُ شَرْبٌ.

فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِرِدَائِهِ، فَارْتَدَى، ثُمَّ انْطَلَقَ يَمْشِي، وَاتَّبَعْتُهُ أَنَا وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، حَتَّى جَاءَ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ حَمْزَةُ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنُوا لَنَا، فَإِذَا هُمْ شَرْبٌ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَلُومُ حَمْزَةَ فِيمَا فَعَلَ، فَإِذَا حَمْزَةُ قَدْ ثَمِلَ، مُحْمَرَّةً عَيْنَاهُ، فَنَظَرَ حَمْزَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَى رُكْبَتِهِ، ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَى سُرَّتِهِ، ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ حَمْزَةُ: هَلْ أَنْتُمْ إِلَّا عَبِيدٌ لِأَبِي؟ فَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ ثَمِلَ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُقَهْقِرُ حَتَّى خَرَجَ عَنْهُمْ، وَخَرَجْنَا مَعَهُ. وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ.

والأبيات أولها في الصحيحين، وبقيتها خارج الصحيح، (أَلَا يَا حَمْزُ لِلشُّرُفِ النِّوَاءِ) هذه في الصحيحين، وأما تمامها فهو خارج الصحيح.

فالشاهد: أن الخمر قد تورث مثل هذه الأمور التي فتورث العداوة والبغضاء، فقد يتلف الإنسان مال غيره، وقد يتلف ماله، وقد يقتل، ويقع في خبائث كثيرة. فالخمر هي أم الخبائث، من أجل هذا حرمها رب العالمين سبحانه.

وهنا يقول الناظم: (**كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ**)، أي: كيف تسعى في الجنون وقد منَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليك بالعقل؟ فالسكران قد ذهب عقله، شأنه كشأن المجنون.

وبعض الناس يفيق من سكره ويرى نفسه نائمًا داخل برميل القمامة، فيستيقظ وهو داخل برميل القمامة، ولعله كان قد ضرب ورمي به في ذلك الموضع وهو لا يشعر. وهناك أشياء عجيبة تحصل لمن ابتلي بهذا البلاء الذي هو أم الخبائث.

وحد شرب الخمر، كما هو معلوم في السنة، الجلد. فجلد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أربعين، وجلد عمر ثمانين. والظاهر في جلد عمر الثمانين أنَّ الزيادة من قبيل التعزير؛ لأنه كثر شرب الخمر في زمنه، فزاد أربعين على الأربعين، وجلد في الخمر ثمانين.

وقد حارب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الخمر والأمور الموصلة إليه. ومن هذا القبيل: أنَّ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يأذن بتخليل الخمر بأن يغير إلى الخل، بل أمر بإتلافه وبصبه. وقد جاء في مسلم عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سئل أن يتخذ الخمر خلاً، فقال: «**لا**». فلم يأذن النبي عليه الصلاة بتخليل الخمر، سدًا لهذا الباب، وقطعًا لهذا الشر، فأمر بإتلاف الخمر وأن لا يترك حتى يصير خلاً، وهذا من قطع هذا الباب، الذي هو من أبواب الشر.

وهكذا نهى النبي عليه الصلاة عن استعمال الخمر في الدواء. وقد جاء في مسلم: عن سُوَيْد بْنِ طَارِقٍ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْخَمْرِ؟ فَنَهَاهُ عَنْهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا نَصْنَعهَا لِدَوَاءٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهَا دَاءٌ وَلَيْسَتْ بِدَوَاءٍ**»،

فلم يأذن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالتداوي بالخمر، وأخبر بأنها داء وليست بدواء. فهكذا سد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذا الباب على الناس.

ونهى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الخليطين، وهو أن يخلط بين نبيذين يحصل منهما الإسكار على سبيل الانفراد، فلا يخلط بين نبيذين يحصل من أحدهما الإسكار على سبيل الانفراد، كنبيذ التمر مثلاً، فإن نبيذ التمر إذا ترك وطالت مدته فإنه يسكر، وإن كان في أوائله لا يسكر، لكن مع طول البقاء يشتد ويقذف بالزبد ويحصل له الإسكار. وهكذا نبيذ الزبيب، فإنه مع طول الوقت يشتد ويقذف بالزبد ويحصل منه الإسكار.

فنهى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الجمع بين الخليطين. فعن رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُنْبَذَ الزَّبِيبُ وَالتَّمْرُ جَمِيعًا، وَنَهَى أَنْ يُنْبَذَ الْبُسْرُ وَالرُّطَبُ جَمِيعًا».

كما جاء ذلك في الصحيحين حديث جابر.

وجاء أيضًا في الصحيحين من حديث أبي قتادة، وجاء في مسلم من حديث أبي سعيد ومن حديث أبي هريرة رضي الله عن الصحابة أجمعين.

فنهى عن الخليطين لأنَّ النبيذ إذا جمع مع نبيذ آخر حصلت قوة واشتداد، فربما شرب العبد المسكر وهو لا يشعر، فنبيذ التمر ربما لا يحصل الإسكار إلا بعد أيام، كأربعة أيام أو خمسة أيام، فيحصل فيه التغير ويقذف بالزبد ويحصل منه الإسكار، وفي اليوم واليومين والثلاثة ربما لا يحصل الإسكار منه غالبًا.

ولذا جاء في مسلم: من حديث ابن عباس: أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَانَ يُنْبَذُ لَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَيُصْبِحُ فَيَشْرَبُهُ يَوْمَهُ ذَلِكَ وَلَيْلَتَهُ الَّتِي يَسْتَقْبِلُ، وَمِنَ الْغَدِ حَتَّى يُمْسِيَ، فَإِذَا أَمْسَى فَشَرِبَ وَسَقَى، فَإِذَا أَصْبَحَ مِنْهُ شَيْءٌ أَهْرَاقَهُ.

كل ذلك من التورع؛ فإنه بعد الثلاثة الأيام ربما يحصل فيه شيء من التغير والاشتداد.

لكن إذا جمع الشخص بين النبيذين، بين نبيذ التمر ونبيذ الزبيب، فربما يحصل الإسكار في أقل من هذا الوقت، فيحصل الإسكار ربما قبل أن يظهر التغير فيه، فيشرب الإنسان الخمر وهو لا يشعر ولا يظن أنه قد شرب الخمر. فالنبيذ مع النبيذ تحصل منهما قوة واشتداد وحرارة، فيسرع الإسكار في الشراب. فلهذا نهى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الخليطين سدًا لهذا الباب، أي باب الإسكار. وهذا الذي عليه جمهور العلماء وهو أنَّ هذا مما ينهى عنه، وإن اختلفوا: هل النهي للتحريم أو للكراهة؟

وخالفت الحنفية في ذلك، وهم محجوجون بالسنة.

واختلف العلماء في الخلط المنهي عنه: هل يشمل الخلط عند النبذ وعند الشرب، أو هو مختص بالخلط عند النبذ؟

فجمهور العلماء لم يفرقوا بين المسألتين، ويقولون: لا يخلط بين نبيذين ولو كان عند الشرب، يعني لو جاء بنبيذ تمر ونبيذ شعير أو نبيذ زبيب وخلط بينهما عند الشرب وشرب في الحال، فجمهور العلماء يرون أن النهي يشمل حتى هذه الصورة. وهناك من أهل العلم كالليث بن سعد يرى أن النهي وارد عن الخلط عند إرادة النبذ، يعني يأتي بتمر وزبيب مثلاً ويضعهما في إناء ويضع فيه الماء وينبذهما جميعًا، فالليث بن سعد يرى أن النهي وارد في هذه الصورة.

والأحاديث جاءت مطلقة وجاءت مقيدة، ففي بعض الأحاديث نهى النبي ﷺ أن ينتبذ الزبيب والتمر، ففيه ذكر الانتباذ، وفي بعضها ما يدل على الجمع

والخلط مطلقًا، بأنَّ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نهى أن يجمع بين كذا وكذا وكذا وكذا.

وما ذهب إليه الليث بن سعد له قوته، والألفاظ التي جاءت عامة تقيد بالنبذ؛ لأنه عند النبذ يحصل اشتداد وقوة، بعكس ما إذا كان عند الشرب، فإذا صب نبيذ التمر ونبيذ الزبيب في إناء وشرب مباشرة، فلا يظهر أن السكر يحصل بذلك في هذا الوقت اليسير ، لكن إذا نبذ التمر والزبيب ونقعهما في الماء، فإن التنقيع يبقى وقتًا حتى يحصل منه الإسكار المبكر.

فما ذهب إليه الليث بن سعد له قوته، وإن كان الورع هو الابتعاد عن ذلك بالكلية، والسلامة الابتعاد من ذلك بالكلية، بأن لا يخلط الشخص بين نبيذين، كما عليه جمهور العلماء.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَاهْجُرِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتَى = كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ**): والخمر سميت خمرًا لمخامرتها للعقول، أي لتغطيتها للعقل، ومنه سمي الخِمار خِمارًا لحصول التغطية به. فالخمر يغطي العقل، وقد قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الخمر ما خامر العقل، أي ما غطاه.

وكان الخمر قديمًا يستعمل من أشياء متعددة: كالعنب، والتمر، والزبيب، والذرة، والشعير، والعسل، وألبان الخيل. وقد قعد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قاعدة عامة، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**». فكل مسكر هو داخل في مسمى الخمر، وإن سمي عصيرًا، أو سمي نبيذًا، أو سمي شرابًا روحيًا، فهو داخل في مسمى الخمر.

وعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَيَشْرَبَنَّ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، وَتُضْرَبُ عَلَى رُءُوسِهِمُ الْمَعَازِفُ، يَخْسِفُ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ».

فالعبرة بالحقيقة لا بالأسماء المخالفة لحقيقة الشيء، فما خامر العقل وما أسكر فهو الخمر، سمي بعد ذلك خمرًا أو لم يسمى خمرًا، وسواء كان مشروبًا أو مأكولاً، أو كان مشمومًا، أو كان عن طريق الحقن، فما أسكر فهو خمر، وما أسكر كثيره فقليله حرام.

فيدخل في ذلك الخمر المشروب، ويدخل في ذلك ما كان مسكرًا من المطعومات، وهكذا ما كان مشمومًا من أنواع المخدرات، أو كان عن طريق الحقن من أنواع المخدر، فإنها داخلة في جملة المسكرات.

وهكذا الحشيشة التي ظهرت قبل قرون متعددة في زمن التتار، هي من جملة المسكرات، وداخلة في مسمى الخمر، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه في فتوى له مبسوطة، فبين حقيقتها ودخولها في مسمى الخمر، وأن مثالها مع الخمر المشروب كمثال البول مع الغائط، فالخمر كالبول، والحشيشة كالغائط، وكل من الخمر والحشيشة رجس من عمل الشيطان، وهي تورث الأخلاق السافلة كالدياثة وغير ذلك من الأخلاق السافلة.

وكان بعض الجاهلين في تلك الأزمان يسميها لقيمة الفكر والذكر، وهي تسميات باطلة، فهي لقيمة الرجس ولقيمة الشيطان، تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، شأنها كشأن الخمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ

وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وهكذا أدخل جماعة من أهل العلم في المسكرات: جوزة الطيب، وقد نص على ذلك جماعة من علماء الإسلام من علماء الحنابلة، ومن علماء الشافعية، ومن علماء المالكية، وعدوها من جملة المسكرات، وهي التي تستعمل في بعض الحلوى، ويستعملها بعض الناس أيضًا في الشاي. وهي معدودة عند جماعة من علماء الإسلام من جملة المسكرات، وكون الشيء اليسير منها لا يغطي العقل لا يعني أنها ليست مسكرة؛ فإن الشيء اليسير من المسكر لا يحصل به الإسكار ومع هذا فهو داخل في مسمى المسكر والخمر، ولهذا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ، فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ»، و«مَا أَسْكَرَ مِنْهُ الْفَرَقُ فَمِلْءُ الْكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ»، فما أسكر كثيره فالقليل منه حرام، ويدخل في مسمى الخمر. فالقليل الذي لا يسكر، إذا كان كثيره يسكر، فهو خمر ومحرم، ولا يجوز استعماله. وإذا وضع الشخص في فمه قطرة من خمر، فإنه لا يسكر بذلك، ووع هذا فيعد شاربًا للخمر، ويدخل في اللعن، وتشمله أحكام شارب الخمر.

فهناك من الأشياء ما قد يكون فيها إسكار يسير، لا يتأثر الإنسان بها إذا تناول الشيء اليسير منها، وقد يسكر إذا أكثر من ذلك. وهكذا أدخل جماعة من أهل العلم "القات" في جملة المسكرات، كما ذهب إلى ذلك العلامة محمد إبراهيم آل الشيخ – شيخ العلامة ابن باز رحمة الله عليه –، وهكذا العلامة ابن باز.

فعلى كل: القاعدة العامة هي ما قَعَّدَه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قوله: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ». وما قاله عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧) واتَّـــقِ اللهَ فَتقـــوْى اللهِ مَـــا ❁ جـاورتْ قَلـبَ امـرئ إلا وَصَـلْ

الشرح:

فبعد أن نصح بترك الخمرة؛ لأنَّها مفتاح للشرور، وهي أم الخبائث، كما قال عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فهي تدعو إلى خلاف التقوى؛ فإنها تدعو إلى معصية الله عَزَّوَجَلَّ، حث رحمه الله على تقوى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنها أصل كل خير. فقال: (وَاتَّقِ اللهَ)، وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ: أن يجعل الإنسان بينه وبين عذاب الله وقاية، بفعل أوامره واجتناب نواهيه. فجميع الدين داخل تحت مسمى التقوى، فالواجبات فعلها تقوى لله عَزَّوَجَلَّ، والمحرمات تركها تقوى لله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (مَا جَاوَرَتْ) بمعنى: ما لاصقت أو ساكنت، فإن المجاورة بمعنى الملاصقة وبمعنى المساكنة، فما جاورت قلب امرئ، أي ما لاصقت أو ساكنت قلب امرئ.

قوله: (إِلَّا وَصَلْ): أي إلا وصل إلى كل مقام رفيع، وإلى كل خير، فإن من اتقى ارتقى، يرتقي إلى المنازل العالية، ويرتقي إلى الخيرات الرفيعة، فتقوى الله عَزَّوَجَلَّ هي أصل كل خير، ويرتقي العبد بها إلى كل خير، ويصل العبد بسببها إلى كل خير.

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بجملة من العبادات، وبين أن الحكمة منها هي التقوى، كما في عبادة الصيام، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. والله شرع الأضاحي والهدي لا لانتفاعه بشيء من لحومها ومن دمائها – تعالى الله عن ذلك – وإنما يرى منا التقوى، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فخير ما يتجمل الإنسان به هو تقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. فإن ما يتزود العبد به من التقوى فإنه زاد موصل له إلى الجنة، فمن اتقى الله عَزَّوَجَلَّ تزود بزاد يوصله إلى الجنة وإلى مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: (**وَاتَّقِ اللهَ فَتَقْوَى اللهِ مَا جَاوَرَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إِلَّا وَصَلْ**): فالوصول إلى الجنة يكون بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الجنة قال الله فيها: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]. وإذا أراد أن يصل إلى العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، فعليه أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]. فذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ من حقق التقوى فله العاقبة الحسنة.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. فعاقبة الأمور جعلها الله عَزَّوَجَلَّ لمن اتقى. فإذا أردت أن تصل إلى العاقبة الحسنة في الدنيا وفي الآخرة، فعليك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

والعاقبة الحسنة في الآخرة هي: أن تنال مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ وتدخل جنته.

وفي الدنيا: أن يكون لك العلو على الأعداء، والتمكن في الأرض. فتصل إلى هذه العاقبة الحسنة بتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهكذا إذا أردت أن تصل إلى المقامات الرفيعة، فتصل إلى العلم الرفيع العالي، فعليك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]. فمن اتقى الله عَزَّوَجَلَّ جعل الله له الفرقان الذي يفرق به بين الحق والباطل، وهذا هو العلم النافع. فالعلم النافع يفرق الإنسان به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وبين التوحيد والشرك، والإيمان والكفر، والسنة والبدعة. فتنال الفرقان بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، ويُكَفِّر الله عَزَّوَجَلَّ عنك السيئات، ويغفر الله لك الذنوب، فيكفر عنك ويتجاوز عن صغائرك وعن كبائرك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وفضل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واسع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]. فيجعل الله عَزَّوَجَلَّ للمتقين كفلين –أي ضعفين– من رحمته، ويجعل الله عَزَّوَجَلَّ لهم النور الذي

يمشون به في ظلمات الشرك وفي ظلمات الكفر، وهو نور العلم، نور الوحي، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فيرتقي العبد ويصل إلى العلم النافع والمراتب العالية في العلم بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وهذه الآية وإن لم تكن واردة في هذا المعنى – أي ليس المراد بها أن من اتقى الله عَزَّوَجَلَّ علمه الله – فليست من قبيل الشرط وجوابه، لكن فيها مقارنة التقوى والعلم، وأن التقوى قرينة للعلم، والعلم قرين التقوى؛ لأن الله قال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] بالرفع، ولم تأت بالجزم، فليست جواب الأمر، لكن غاية ما تدل عليه الآية هو الاقتران بين العلم وبين التقوى، أي أن العلم قرين للتقوى، وكلما ازداد علمًا ازداد تقوى لله عَزَّوَجَلَّ.

وهكذا إذا أراد العبد أن يصل إلى المخرج من الشدائد والمحن، وأن يصل إلى الرزق الطيب، فعليه بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

فإذا أردت الوصول إلى المخارج من الشدائد والمِحَن والكُرَبات، وإلى الوصول إلى الرزق الطيب، وإلى تيسير الأمور، فعليك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ. ومن يتق الله يجعل له مخرجًا من كل ضائقة وشدة، ويرزقه من حيث لا يحتسب، من

حيث لا يظن، فيأتيه الرزق من أماكن ومواضع لم تدخل في حسبانه. إلى أن قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وإن أردت أن تصل إلى معية الله عَزَّوَجَلَّ وإلى نصره وتأييده وإلى حفظه، فعليك أيضًا بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وهي معية تقتضي النصر والتأييد والحفظ والرعاية. فمن اتقى ارتقى.

وقول الناظم: (**إِلَّا وَصَلْ**). فإنه يصل إلى كثير من الخيرات، وإلى كثير من المكرمات، وإلى المقامات العالية الرفيعة، ويصل إلى مغفرة الله وإلى رحمته وإلى جنته، فيصل إلى كل خير.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٨) لَيسَ مَنْ يَقطَعُ طُرقًا بَطلاً ❁ إنما مَنْ يتَّقِي اللهَ البَطَلْ

بيَّن رحمة الله عليه في هذا البيت أن البطل هو الذي يتقي ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والبطل في لغة العرب بمعنى الشجاع. فليس الشجاع الذي يتقوى على الناس بالظلم فيقطع الطريق، وإنما الشجاع من يتقي ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا شبيه من بعض الوجوه: بما جاء في "الصحيحين" من حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**». فليس الشديد بالصرعة الذي يصرع الناس، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب، فالذي لا يصرعه الغضب وإنَّهما هو الذي يصرع غضبه فهذا هو الشديد، ومن صرعه غضبه فليس هذا بشديد.

فهناك من الناس من عنده قوة في بدنه، فمن صارعه صرعه، وإذا جاءه الغضب لا يمتلك نفسه، ويصرعه غضبه، فربما يقتل، وربما يتلف ماله، وربما يطلق امرأته، وربما يسب ويلعن، وقد يتكلم بالكفر – والعياذ بالله – لأن غضبه صرعه، فما استطاع أن يملك نفسه عند الغضب، فهذا في الحقيقة ليس هو الشديد. ومن كان ضعيف البدن إذا صرعه الناس صُرِع، لكنَّه يملك نفسه عند الغضب، فهذا هو الشديد في الحقيقة، وهذا هو القوي في الحقيقة؛ وهذه القوة الأولى بالحمد والمدح والثناء.

وهكذا الذي يتقوى ببدنه أو بسلاحه في قطع الطرق، ويسفك دماء الناس ويأخذ أموالهم، فليست هذه بطولة، وليس هذا بطل، بل هذا مجرم مفسد ضعيف؛ لأنَّ نفسه الأمارة بالسوء صرعته، وصرعه الشيطان، وصار عبدًا للشيطان ولنفسه الأمارة بالسوء، فهو ضعيف في الحقيقة، وليس بشجاع ولا قوي.

وهو من المفسدين في الأرض الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]. فهذا من المحاربين ومن المفسدين، ولا يشرع في حقه المدح والثناء بأن يقال فيه: شجاع وبطل، وإنما الحكم فيه ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ﴾، فإن قتل قتل، وإن اقتصر على مجرد السرقة تقطع يده ورجله من خلاف، وإن جمع بين القتل وبين السرقة فإنه تقطع يده وقدمه من خلاف قبل أن يقتل ثم يقتل ثم

يصلب، وتجمع له بين هذه العقوبات. فهذا عبد أهان نفسه، وعرض نفسه للعقوبتين: للعقوبة الدنيوية والعقوبة الأخروية؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر عقوبته الدنيوية، وتوعده أيضًا بالعقوبة الأخروية بالعذاب العظيم.

ومعلوم ما قصه لنا أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الصحيحين، قال أَنَسٌ: إِنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ ثَمَانِيَةً، قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَاسْتَوْخَمُوا الْأَرْضَ، وَسَقِمَتْ أَجْسَامُهُمْ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ، فَتُصِيبُونَ مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا**»، فَقَالُوا: بَلَى، فَخَرَجُوا، فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَطَرَدُوا الْإِبِلَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ، فَأُدْرِكُوا، فَجِيءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَسُمِرَ أَعْيُنُهُمْ، ثُمَّ نُبِذُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا. كما فعلوا بالراعي، وتركوا في الحرة يستسقون فلا يسقون حتى هلكوا.

فهؤلاء تقووا على راع ضعيف، وما فعلوه ليست هي البطولة والشجاعة، بل أهانوا أنفسهم بما فعلوا.

فقاطع الطريق عبد هين حقير ذليل، محارب لله ولرسوله، ومن المفسدين في الأشض، جزاؤه في الدنيا ما ذكره الله عز وجل، وله العذاب العظيم في الآخرة إن لم يتب مما حصل منه، وإن لم يتجاوز الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنه.

فالبطل الشجاع هو الذي يتقي ربه؛ لأنه غلب شيطانه وقهره وصرعه، وغلب نفسه الأمارة بالسوء وقهرها. فهذه هي الشجاعة في الحقيقة: أن يتقي العبد ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيمتثل أوامر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإن حاربه من حاربه من الخلق، فلا يبالي بذلك، ويترك معاصي الله عَزَّوَجَلَّ وإن زين له من زين من الخلق، فعنده

شجاعة نفس لا يذل في معصية الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يذل للشيطان، ولا يذل لنفسه الأمارة بالسوء ولشهوته المضلة، بل هو قوي شجاع، يواجه هذه الأمور بثبات وشجاعة.

وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم في بعض الطاعات: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. فالصدقة تحتاج إلى شجاعة، والبخيل فيه جبن؛ فإنه يخاف من الفقر والحاجة، يقول: إن تصدقت أصابني الفقر وأصابتني الحاجة، فيخاف ويترك الصدقة في مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ. والجواد عنده شجاعة؛ فإنه يبذل ماله في مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يبالي، فهو مؤمن بوعد الله عَزَّوَجَلَّ، كافر بوعد الشيطان؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فهو مؤمن بوعد الله عَزَّوَجَلَّ، وكافر بوعد الشيطان، فعنده شجاعة في العبادة وإقدام، فلا يرجف قلبه في هذا الموطن، وإنما يرجف فيه قلب البخيل. وهكذا القول في بقية الطاعات والعبادات.

فالمتقي لله عَزَّوَجَلَّ هو الشجاع، هو البطل في الحقيقة. أما من يتقوى على ضعفاء الناس ويقطع الطريق، فليس ببطل ولا شجاع.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٩) صـدِّقِ الشَّـرعَ وَلاَ تـركنْ إِلـى ❁ رَجـلٍ يَرْصُـدُ في اللَّيـلِ زُحـلْ

الشرح:

(صَدِّقِ الشَّرْعَ): والمراد بالشرع: الوحي، وهو الكتاب والسنة. (وَلَا تَرْكَنْ) أي: لا تَمِلْ ولا تسكن. والركون بمعنى الميل والسكون: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]. أي لا تميلوا إليهم، ولا تسكنوا إليهم، والمراد بذلك سكن النفس، فقال: (وَلَا تَرْكَنْ إِلَى رَجُلٍ يَرْصُدُ فِي اللَّيْلِ زُحَلْ): ويرصد بمعنى يرقب، في الليل زحل، وزحل نجم من النجوم المشهورة المعروفة، وهو من أشهر النجوم عند المنجمين، ومن أعلاها، ويتعلقون به أكثر من غيره، ويقدمونه على غيره من النجوم.

وفي هذا البيت تحذير من ابن الوردي رحمة الله عنن تعاطي التنجيم، أو من تصديق المنجمين الذين يستعملون النجوم استعمالًا فاسدًا، فيعتقدون أن النجوم لها تأثير في الحوادث الأرضية: من غلاء الأسعار، ومن نزول الأمطار، ومن الفيضانات والزلازل، ومن كثرة الموت، وغير ذلك من الأمور التي تحدث في الكون، فيرون أن الحوادث الأرضية منشأها من الأمور الفلكية، ومن حركة النجوم من افتراقها واقترانها. وهكذا يستعملون النجوم في معرفة الأمور الغيبية: من حيث السعادة والشقاوة، والغنى والفقر، والمرض والصحة، وغير

ذلك من الأمور الحاصلة في الكون، فيعتمدون عليها في معرفة الأمور الغيبية. وكل هذا من الكفر والشرك.

فمن اعتقد أن النجوم مؤثرة في الكون، فهذا مشرك الشرك الأكبر في توحيد الربوبية، وخارج بذلك عن ملة الإسلام، وهذا الشرك شبيه بشرك قوم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فإنهم كانوا يعبدون النجوم من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

وعباد النجوم يعتقدون فيها هذه العقيدة، ويعتقدون أن روحانيات النجوم تنزل إليهم، وتخاطبهم، وتفعل في الكون ما تشاء، وهذا شرك أكبر في توحيد الربوبية، وجر أيضًا إلى الشرك الأكبر في توحيد الألوهية؛ فإنهم صرفوا لها أنواعَ العبادات والقربات.

ومنهم من استعمل النجوم في معرفة الأمور الغيبية، وهذا أيضًا من الكفر الأكبر ومن الشرك؛ فإنه لا يعلم الغيب إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ومن استعمل النجوم في معرفة الأمور الغيبية فهو كافر بالله عَزَّوَجَلَّ، الكفر الأكبر المخرج عن ملة الإسلام.

ومن هذا الباب ما يسمى بالأبراج، والأبراج عبارة عن نجوم، وهي منازل القمر، فيعتقدون أن من كان برجه كذا فيكون له كذا وكذا من السعادة والشقاوة، ومن الغنى والفقر، وغير ذلك من الأمور المختلفة. وكل هذا من الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه لا يعلم الغيب إلا الله.

والتنجيم مازال في هذه الأمة منذ أزمان قديمة. فقد جاء في مسلم من حديث عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْبَعَةٌ بَقِينَ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ بِالْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ، وَالنِّيَاحَةُ، وَإِنَّ**

النَّائِحَةَ إِذَا مَاتَتْ وَلَمْ تَتُبْ كُسِيَتْ ثِيَابًا مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعًا مِنْ لَهَبِ النَّارِ}}، والاستسقاء بالنجوم أي طلب السقيا من النجوم، وهذا من التنجيم.

وفي حديث زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ: فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ». متفق عليه.

وقد أخبر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن علم النجوم داخل في السحر، كما جاء عند الإمام أحمد وعند غيره من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ، اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ».

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق النجوم زينة للسماء الدنيا، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فخلقت من أجل هذه الأمور: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. فتستعمل النجوم فيما خلقها الله عَزَّوَجَلَّ.

فإذا استعملها الإنسان الاستعمال الشرعي، فاستعملها علامات في معرفة الجهات: جهة الشمال والجنوب والشرق والغرب في الليالي المظلمة، أو عرف بها جهة القبلة، فهذا استعمال صحيح. وهكذا إذا استعملها في معرفة أوقات وساعات الليل، فالنجوم الفلانية تظهر في الثلث الأول من الليل، والفلانية في

نصف الليل، والفلانية في الثلث الأخير، وتلك في قرب الفجر، فيستعملها في معرفة أوقات الليل، فهو استعمال صحيح ليس فيه محذور.

أما أن تستعمل لمعرفة علم الغيب، أو يعتقد الشخص أن النجوم مؤثرة في الحوادث الأرضية، فهذا استعمال لا يجوز، وهو من الكفر الأكبر المخرج عن ملة الإسلام.

والمؤلف يقول: (**صَدِّقِ الشَّرْعَ وَلَا تَرْكَنْ إِلَى ... رَجُلٍ يَرْصُدُ فِي اللَّيْلِ زُحَلْ**)، والله سبحانه أخبرنا أنه لا يعلم الغيب إلا هو، فقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]. فالذي يعتقد أن المنجم يعلم الغيب، فهو مصدق للمنجم ومكذب للشرع. والواجب هو تصديق الشرع.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ أَتَى سَاحِرًا أَوْ كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** ﷺ»، والمنجمون يدخلون في معنى هذا الحديث؛ فإن من معاني العراف: هو من يدعي معرفة الغيب بأي أمر من الأمور. فالذي يدعي معرفة علم الغيب بالتنجيم، هو داخل في معنى هذا الحديث أو في لفظه: «**من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**».

يقول ابن الوردي رحمة الله عليه: (**صَدِّقِ الشَّرْعَ**)، أي: صدق الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الله أخبر أنه لا يعلم الغيب إلا هو، وصدق النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فإنه أيضًا أخبر بذلك، وحذرنا من تصديق العرافين والكهنة.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ عن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال له وأمره أن يقول: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [هود: ٣١]، كما أمر نوح عليه الصلاة أيضًا أن يقول ذلك لقومه: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [هود: ٣١]. فالغيب لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

حتى الجن، قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم في كتابه الكريم: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وهكذا الملائكة لا يعلمون الغيب فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، فلا يعلم الغيب إلا الله عَزَّوَجَلَّ. فالواجب عليك أن تصدق الوحي في أنه لا يعلم الغيب إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تتجه إلى المنجمين الذين يرصدون النجوم ويدعون معرفة الغيب بها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٠) حَـارتِ الأَفْكـارُ في حكمـه مَـنْ ❁ قَـــدْ هَـــدانا ســـبْلنا عَزَّوَجَلَّ

الشرح:

(حارت) في حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهنالك من ضل في هذا الباب، كالجهمية، وهكذا الأشاعرة والمعتزلة. فمنهم من نفى الحكمة والتعليل في أفعال الله عَزَّوَجَلَّ، كالجهمية والأشاعرة، فلا يرون أن الله عَزَّوَجَلَّ يفعل الشيء لحكمة، وهم نفاة الحكمة والتعليل، ومنهم من أثبت لله عَزَّوَجَلَّ حكمة لكنها مخلوقة، كالمعتزلة، وهؤلاء أرادوا أن ينزهوا الله عَزَّوَجَلَّ عن الحاجة – فيما يزعمون – وهو أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا فعل الفعل لحكمة فهذا يدل على حاجته إلى تلك الحكمة، وهذا من الكلام الفاسد.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يحتاج إلى مخلوق من مخلوقاته، فهو الغني، وحكمة الله عَزَّوَجَلَّ من صفاته، والنقص أن يحتاج الله عَزَّوَجَلَّ إلى مخلوق من مخلوقاته. أما الحكمة فإنها من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله غني بأسمائه وصفاته عن خلقه، فالنقص في حق الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون محتاجًا إلى مخلوق من مخلوقاته، أما أن يقال محتاج إلى حكمته أو إلى سمعه أو إلى ذاته أو إلى علمه، وأن هذه الحاجة من قبيل النقص، هذا الكلام من الكلام الفاسد.

والأدلة في إثبات الحكمة لله عَزَّوَجَلَّ أدلة كثيرة جدًا، ومن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ الحكيم: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]. وهو العزيز الحكيم، فمن أسمائه الحكيم، والحكمة من صفاته.

والعجيب أن هنالك من أهل البدع والأهواء من أثبت صفة العلم عن طريق صفة الحكمة، ونفى صفة الحكمة، وهذا من الأمور العجيبة، فإن الذين أثبتوا صفة العلم لله عَزَّوَجَلَّ عن طريق العقل، أثبتوها بطريق الحكمة؛ فإنهم نظروا إلى الكون وما فيه من الإحكام والإتقان، وعدم الاضطراب والاختلال، وما فيه من التناسق وعدم الاضطراب، فقالوا: هذا يدل على أن خالق الكون عليم؛ فإن الجاهل لا تحصل منه هذه الأمور المحكمة المتقنة المتناسبة التي ليس فيها اختلاف ولا اضطراب.

وهذا الأمر الذي ذكروه هو حقيقة الحكمة؛ فإن الحكمة وضع الشيء في الموضع المناسب، فهذه هي الحكمة، فهم استفادوا صفة العلم في الحقيقة من صفة الحكمة، والعجيب أنهم أثبتوا صفة العلم ونفوا صفة الحكمة. ولازم نفي صفة الحكمة هو نفي صفة العلم، وقد اعترف بعض أهل البدع والأهواء بالتناقض في هذا الباب، كما بين ذلك وذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه في كتابه "النبوات"، فبين أن هناك من أهل البدع من اعترف بالتناقض حين أثبتوا صفة العلم لله عَزَّوَجَلَّ ونفوا صفة الحكمة، وهم إنما استفادوا صفة العلم من صفة الحكمة.

فعلى كل: هناك من حار فكره وظل في باب حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، كالجهمية والأشاعرة والمعتزلة. وهنالك من لم يعرف حكمة الله عَزَّوَجَلَّ فطعن في حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، ووصف الله بما لا يليق، وأراد أن يحكم على ربه بالتناقض والاختلاف، وأن أحكامه على خلاف الحكمة، وهو إنما أُتي من جهله ومن قلة علمه، كالذي طعن في الحكمة الشرعية لله عَزَّوَجَلَّ في قطع يد السارق، فقال كيف

تقطع يد السارق في ربع دينار، مع أنَّ ديتها هو نصف الدية، وهذا إنما أُتي من جهله؛ فإنها لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

فهناك من طعن في حكمة الله عَزَّوَجَلَّ بسبب جهله وقلة علمه، والله يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ويقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ويقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ويقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، فهؤلاء جهال ضلال طعنوا في حكمة الله عَزَّوَجَلَّ لجهلهم.

وهنالك من حارت أفكاره في حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، لا على سبيل القدح والطعن، لكن على سبيل التعظيم، فحارت أفكاره تعظيمًا لحكمة الله عَزَّوَجَلَّ، وحصل له الابتهار والتعجب البالغ من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في الكون، ومن حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في الشرع، وهؤلاء هم المتأملون المعتبرون بآيات الله عَزَّوَجَلَّ، المتفكرون في الخلق؛ فإنهم نظروا في حكم الله بما انبهرت منه العقول، وعلموا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الحكيم في أفعاله، فتأملوا في خلق الله عَزَّوَجَلَّ، فعلموا أن الله عَزَّوَجَلَّ حكيم في كل ما يفعل وفي كل ما يخلق، وتأملوا في شرع الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا، فعلموا شيئًا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأن ما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ موافق للعقل السليم، وموافق لمصلحة العباد في كل زمان ومكان. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

ويقول: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

والمتأمل في الأرض يجد الآيات العظيمة، فالله عَزَّوَجَلَّ بسط الأرض وجعلها مهادًا وسواها وأتقن خلقها أحسن إتقان، وأرساها بالجبال حتى لا تضطرب وتتزلزل، وجعل فيها من جميع الثمار والنبات، وأجرى المياه على ظهرها وقنوات في جوفها، وفيها ما فيها من الآيات العظمة الدالة على حكمة الله عَزَّوَجَلَّ وعلى إتقانه، وهكذا إذا تأمل الإنسان في نفسه: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، يعلم أن الخالق حكيم في أفعاله وفي خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فإذا نظر إلى جزء من أجزاء بدنه، وتأمل فيه وتفكر فيه، لوجد العبر، ولعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ حكيم في خلقه.

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان تسعة أبواب في بدنه: بابان للنظر، وبابان للشم، وبابان للسمع، وباب للأكل والشرب والكلام وهو الفم، وبابان لإخراج الفضلات من الجسد، ومصالح العباد لا تتم إلا بهذه الأبواب، وجعل الماء في باب الفم عذبًا، وفي بابي الأذن مرًا، وفي بابي النظر مالحًا، فخالف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين هذه المياه، لا عن طريق العبث – تعالى الله عن ذلك – لكن لما لله في ذلك من الحكمة.

فالفم ماؤه حلو، لو كان مرًا أو مالحًا لما استطاع الإنسان الأكل والشرب إلا عن كره. وجعل الله عَزَّوَجَلَّ ماء العين مالحًا؛ فإن العين شحمة، والمالح أحفظ لها، فحفظها الله عَزَّوَجَلَّ بالماء المالح. وجعل في الأذن ماءً مرًا من أجل وقاية الأذن؛ فالأذن مفتوحة، بعكس العين فإنَّها تغلق وتفتح، والفم يغلق أيضًا، وأما

الأذن فإنها مفتوحة، فإذا دخلت الحشرات فإنها تنفر من ذلك الماء المر، فحمى الله عَزَّوَجَلَّ الأذن بذلك، ولله عَزَّوَجَلَّ في ذلك الحكم العظيمة. وجعل الله عَزَّوَجَلَّ الجفون للعين؛ لأن العين محل الرؤية، فتحتاج – كالمرآة – إلى صقل وإلى تنظيف حتى تكون الرؤية واضحة، وجعل حركتها لا إرادية لتنظيف العين.

ولهذا لما كان الذباب ليس في عينيه أجفان، فإنَّه يمسح عينيه باستمرار بيديه. وأما الإنسان فجعل الله عَزَّوَجَلَّ له أجفان متحركة بغير اختياره لتنظيف العينين.

ولما كانت الحاجة إلى السمع أكثر من البصر، جعل الله عَزَّوَجَلَّ السمع مفتوحًا، والبصر يغلق عن طريق الأجفان؛ وذلك أن السمع يكون للأعراض، فإن الصوت لا يبقى، فإذا كانت الأذن تغلق ربما يفوت السماع؛ لأن السمع لا يبقى، لكن الشيء المرئي يبقى، فإن أغلق الإنسان العين وفتحها وجد المرئي؛ لأن العين تتعلق بالمرئيات، وأما الأذن فتتعلق بالأعراض بالشيء المسموع، والشيء المسموع يفوت ولا يبقى، أما الأعيان فإنها تبقى.

فالحاجة إلى السمع أبلغ من الحاجة إلى البصر، لهذا جعل الله عَزَّوَجَلَّ السمع مفتوحًا. وأما اللسان فأغلقه الله عَزَّوَجَلَّ بعدة أبواب – بأربعة أبواب – لخطورته، ولأن حاجة الإنسان إلى الكلام أقل من حاجته إلى السمع والبصر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**» متفق عليه عن أبي هريرة، فأغلقه الله عَزَّوَجَلَّ بأربعة أبواب حتى يقل من الكلام. ولله عَزَّوَجَلَّ الحكم البالغة في خلقه.

لكن هذا على سبيل المثال، والله يقول: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. والإنسان عالم واسع، فإذا أراد الإنسان أن يتأمل في نفسه وجد العبر العظيمة، وجد من الحكم الشيء الكثير، مما يبهر العقول.

قال رحمة الله:

١١) كُتِبَ الموتُ على الخَلقِ فكمْ ❁ فَلَّ مِن جَيشٍ وأَفنَى مِنْ دُوَلْ

الشرح:

فالموت كتبه الله عَزَّوَجَلَّ على الخلق، بمعنى قضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ❁ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، فالموت كتبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على جميع الخلق، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. فالموت مكتوب، لابد منه.

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨]، فلا فوت من الموت، وهذا أمر يعلمه المؤمن والكافر، وإنما يتغافل عنه كثير من الخلق، وإلا فهو أمر معلوم لا يشك فيه مؤمن ولا كافر، لكن يتغافل عنه كثير من الخلق. والغفلة عن ذلك هي السبب العظيم التي بها اتجهوا إلى الدنيا وإلى شهواتها ونسوا الآخرة، وإلا فإن من تذكر الموت عمل لأخرته ولم ينشغل بدنياه؛ فإن الموت أعظم زاجر وواعظ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**»، يَعْنِي الْمَوْتَ. رواه أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه.

والحديث وإن كان فيه شيء من الضعف لكن له شواهد تقويه. فالموت واعظ للقلوب، والشخص يشاهد من يموت من أبائه ومن أقربائه ومن أصحابه ومن جيرانه، وهو في غفلة وكأنه لن يموت، والسبب في ذلك قسوة القلوب. وهكذا تُشَيَّعُ الجنائزُ، ولا يتعظ بذلك إلا القلة من الناس، بل ربما يدخل الداخل إلى المقبرة ويتحدث في أمور الدنيا، وفي البيع والشراء وغير ذلك من أمور الدنيا، وهو في أعظم واعظ، وهو الموت. وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين إذا ساروا وراء الجنازة كأنما على رؤوسهم الطير، لكن قست القلوب إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: (**فَلَّ مِن جَيشٍ**) أي: هزمه وكسره وأفناه.

وقوله: (**وأَفنَى مِنْ دُوَلْ**) أي: قطع وأباد، فكم من دول ماضية زالت بالموت وفنيت بالموت، وكم من جيش زال وانتهى بالموت، وكم من دول ماضية كان لها القوة والمكنة في الأرض، كفارس والروم، وكغيرها من الدول، زالت وفنيت، وصارت في أخبار ماضية تذكر في التاريخ، مجرد حديث وخبر. وهكذا من جاء بعدهم، فالكل فنوا، وهكذا من في هذه الأزمان ومن يأتي بعد هذه الأزمان، فالفناء يصيب الجميع.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٢) أيــنَ نمُــرودُ وكنعــان ومَــنْ ❁ مَلَــكَ الأرْضَ وَوَلــيَّ وعَــزَلْ

الشرح:

(**أين نمرود؟**) ونمرود هو: ابن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وهو من ملوك الأرض، وكان في زمن إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو من الملوك الكفرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فأين نمرود الذي ملك المشرق والمغرب؟

ذهب وولى، وما انتفع بملكه، وما امتنع بملكه عن الموت، (**أين نمرود وكنعان؟**) فقد ذهب وذهب أبوه، (**أين نمرود وكنعان ومن ملك الأرض وولى**

وعزل). وكذلك غير هؤلاء من ملوك الأرض، ممن كان يولي من شاء ويعزل من شاء، لما عنده من القوة والسلطان، ما استطاع بقوته وسلطانه أن يمتنع من الموت، فمات ومات غيره من ملوك الأرض، وما انتفعوا بملكهم ولا بسلطانهم. ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۞ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۞ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۞ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٢٥-٣٤].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٣) أَيْنَ عَادٌ أَيْنَ فِرعَونُ وَمَنْ ۞ رَفَعَ الأَهْرَامَ مِنْ يسمعْ يَخَلْ

الشرح:

أين عاد الذين لم يخلق مثلهم في البلاد، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦]. أين هم؟

ذهبوا وولوا، أفناهم الموت. عاشوا ما شاء الله عَزَّوَجَلَّ، وطغوا وبغوا في البلاد، ومآلهم إلى الموت، فما امتنعوا بقوتهم من الموت. فالموت يقهر الملك والمملوك، والذكر والأنثى، والقوي والضعيف.

(**أَيْنَ فِرْعَوْنُ**) وأين فرعون الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وقال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، قهره الله عَزَّوَجَلَّ بالموت، وهو الذي قال: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]. فأجرى الله عَزَّوَجَلَّ الماء من فوقه، وقهره بالموت.

(**وَمَنْ ... رَفَعَ الْأَهْرَامَ**) وقد اختلف العلماء فيمن رفع الأهرام اختلافًا واسعًا، وكل يتحدث بالظن، وليس لهم في ذلك يقين. فمنهم من قال: إن الأهرام بنيت قبل الطوفان، أي قبل الطوفان الذي أرسله الله عَزَّوَجَلَّ على أهل الأرض في زمن نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ومنهم من قال: بناها النمرود، ومنهم من قال غير ذلك.

والأهرام معروفة في بلاد مصر، معروفة بعظم بنائها، وهي عبارة عن قبور للملوك، فكان الملك إذا مات قبر في ذلك الموضع مع شيء من أملاكه وأمواله، فكانت قبورًا لبعض الملوك في القرون الماضية. وبنيانها من أحكم البنيان، ولهذا قال: (**رَفَعَ الْأَهْرَامَ**)؛ فإن من تأمل في الأهرام وفيما وصفت به فإنَّه يتعجب من بنائها؛ فإن فيها أحجارًا كبيرة عظيمة، فيتعجب المرء ويقول: كيف رفعت ووضع بعضها فوق بعض إلى ذلك الارتفاع الشاهق، مع أنَّه لم توجد معهم الآلات الحديثة الموجودة في هذه الأزمان، وإنما كانوا يرفعونها بأبدانهم. ورفعهم لأحجار الأهرام مع سعتها وعظمتها دليل على قوتهم وعلى شدتهم. ومع هذا فلم يمتنعوا من الموت مع قوتهم ومع شدتهم.

وتعظيم الأهرام من أمور الجاهلية، ولا ينبغي أن تعظم الأهرام، ولا ينبغي الذهاب إليها وزيارة تلك الأماكن؛ فإن هذا من تعظيمها. وبناء مثل تلك الأبنية على الموتى مما جاءت شريعة الإسلام بإنكاره وبالنهي عنه، فهو أمر منكر لا يشرع في الدين. وتعظيمها –كما هو موجود في هذه الأزمان– من أمور الجاهلية.

فلا تعظم الأهرام ولا ينبغي أن تزار؛ فإن هذا من الباطل. وإذا أراد الشخص الزيارة فليزر الأماكن المباركة، الأماكن الشرعية: فيذهب إلى بيت الله الحرام للحج أو العمرة، ويؤدي النسك، ويزور المشاعر في حجه كعرفة والمزدلفة ومنى، وهكذا يصلي في المسجد الحرام، والصلاة فيه بمئة ألف صلاة، وهكذا يذهب إلى زيارة المسجد النبوي.

فهذه هي الزيارات الشرعية في الإسلام، وبها ينال العبد الأجر والثواب من الله عَزَّوَجَلَّ، وهو في خير وعمل صالح وعبادة لله عَزَّوَجَلَّ. وأما تعظيم الآثار فإنه من أمور الجاهلية، ومن أسباب الشرك ومن وسائله.

قوله: (مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ) هذا مثل يضربه العرب، يقول: من يسمع يخل، بمعنى يظن. فمن أهل العلم من يقول: أي من يسمع أخبار الناس يقع ذلك في نفسه منهم، فيظن بالناس المكروه، فيقولون: من يسمع يخل.

فالذي يفتح أذانه لسماع الأخبار فإنه يقع في نفسه ويظن بالناس السوء.

ومنهم من قال: من يسمع يخل، بأن ذلك يقال لتحقيق الظن، فهذه العبارة يؤتى بها لتحقيق الظن. فمن يسمع يحصل له تحقيق ظنه. فقال: (مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ) أي يظن. فمن يسمع أخبار من مضى، فإن ظنه يتحقق، ويعلم حقيقة الأمر، فيعلم حقيقة من مضى، وأنهم قوم وإن عتوا في الأرض وكان لهم الملك

والسلطان، فإنهم قوم ضعفاء، قهرهم الموت، وأذلهم الموت، وزالوا وانتهوا. فيكون له في ذلك العبرة والعظة. وكما قيل: من قرأ التاريخ اعتبر.

اقْـــرَأُوا التَّـــارِيخَ إِذْ فِيـــهِ الْعِبَـــرْ ظِـــلُّ قَـــوْمٍ لَـــيْسَ يَـــدْنُو الْخَبَـــرْ

فمن قرأ أخبار من مضى تحقق له الظن، أي علم أمورهم وشأنهم، وكيف كانوا في ملك عظيم وفي سلطان عظيم، غير أنهم كفروا وتمردوا، وكيف أن الله عَزَّوَجَلَّ أهلكهم، وكيف أن الجميع ذهب وزال، وقهره الموت وأذله الموت.

وفرعون المراد به إذا أطلق: فرعون موسى، قيل اسمه: الوليد بن مصعب.

وفرعون يطلق على من ملك ديار مصر، وهم فراعنة كثر، لكن المشهور منهم فرعون موسى الذي كان في زمن موسى، ويقال أن اسمه: الوليد بن مصعب كما سبق.

وهكذا من سمع أخبار من مضى، وكيف كانوا، وسمع ما قصه الله عَزَّوَجَلَّ عنهم من كفرهم ومن شركهم ومن بغيهم ومن تمردهم وعتوهم، فإنه يقع في نفسه منهم، وهذا الوقوع في بابه؛ فإنهم أهل لذلك.

فهذا قول لأهل العلم في معنى ومن يسمع يخل، كما ذكره أبو عبيد. ومنهم من قال: هذه الكلمة تستعمل على معنى تحقيق الظن. والمعنيان صحيحان:

فمن يسمع أخبار من مضى كعاد وفرعون وكالنمرود، فإنه يظن بهم ظن السوء؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ قص لنا عنهم الأخبار التي تدل على عظيم كفرهم وطغيانهم وتجبرهم وظلمهم، فمن سمع تلك الأخبار ظن بهم الظن السيء، وهم أهل للظن السيء، أو على معنى: من يسمع يخل، أي يتحقق ظنه، فمن يتتبع ويقرأ الأخبار الماضية، فإنه يتحقق ظنه إن كان عنده شيء من الوهم وعدم

إدراك الحقيقة. فمن سمع أخبار من مضى على حقيقة الأمر، تحقق ظنه بعد أن كان شكًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ

١٤) أَيـنَ مَـنْ سَـادوا وشَـادوا وبَنَـوا ❁ هَلَـكَ الكُـلُّ وَلَـم تُغـنِ القُلَـلْ

الشرح:

(**أين من سادوا**) سادوا العباد وكانوا سادة مطاعين من الملوك والأمراء. (**وشادوا**) أي: بنوا الأبنية الرفيعة والقصور العالية كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

قال العلماء: مشيدة بمعنى رفيعة عالية. فأين أولئك الذين سادوا البلاد والعباد، وشادوا الأبنية العالية الرفيعة؟ ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ❁ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ❁ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٠].

فبنوا البنايات العالية، ووضعوا مصانع المياه الواسعة، وحالهم كحال من يظن في نفسه الخلود، وأنه لن يموت. والواقع أن جميع أولئك ماتوا وذهبوا، وفنوا جميعًا.

فالكل هلك وذهب، ولم تغنِ القُلَل. والقلل تطلق على أعالي الشيء، ومن ذلك أعالي الجبال يقال لها القلل، وهكذا أعالي القصور الرفيعة يقال لها القلل. فلم تغن عنهم تلك المنازل الرفيعة العالية، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. أي ولو كنتم في أبنية

رفيعة عالية، فإن الموت سوف يأتيكم، ولا مفر من الموت. فلم تغن عنهم القلل، أي تلك القصور والمباني الرفيعة العالية. وتأتي القلل على معنى الجماعة المجتمعة من قبائل شتى، فلم تغن عنهم جماعتهم شيئًا، ولم يغن عنهم جندهم، فلما جاءهم الموت لم يغنى عنهم أحد، فما أغنى عنهم أحد شيئًا، فأخذهم الموت من بين جندهم، ومن بين ملكهم، وما أغنى عنهم أحد، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول في كتابه الكريم: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩]. فما أغنى عنهم شيء.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٥) أَيـنَ أَرْبـابُ الحِجَـى أَهْـلُ النُّهـى	أَيــنَ أَهْــلُ العلــمِ والقــومُ الأوَلْ

الشرح:

هكذا أرباب الحجى، وهم: أرباب العقول النيرة، وأهل النهى، وأهل البصائر النافذة، من أهل العلم والفضل، فهم أيضًا: ماتوا. فالموت كتبه الله على جميع الخلق، على الصالحين وعلى غيرهم، على المؤمنين وعلى الكافرين، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. ولا مفر منه لأحد.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]. وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، فالموت كتبه الله عَزَّوَجَلَّ على الملك، على الراعي والرعية، وعلى الغني والفقير، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، وعلى العالم والجاهل.

وقد مات رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومات قبله الأنبياء والرسل، ومات الصحابة، ومات التابعون، ومن جاء بعدهم، وما زال الناس ينتقلون إلى الدار الآخرة. ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۞ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦]. أي أنها تجمع الناس على ظهرها، وتجمع الناس في بطنها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٦) سيُعيدُ اللهُ كُلاً مِنهمُ ❁ وَسيَجزِي فَاعِلاً ما قد فَعَلْ

الشرح:

(**سيُعيد الله كلاً منهم**): أي من كان كافرًا متمردًا شيطانًا مريدًا، ومن كان من أهل العلم والتقى. فكل من مات من الصالحين: من المؤمنين أو من الكافرين، لابد من الرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولابد من البعث والنشور.

فمن مات لابد أن يرجع للقاء الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦].

فبعد الموت يكون البعث، والبعث بعد الموت قد دلت عليه الأدلة الكثيرة، وقد أنكره المشركون والكافرون من غير أهل الكتاب، وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ هذه المسألة بيانًا شافيًا في القرآن، وضرب لها الأمثلة الكثيرة، وأقام الحجج القوية في إثباتها، فمن ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦-٦٧].

أي: الذي ابتدأ خلق العبد ولم يك شيئًا، هو الذي سيعيده، والإعادة أهون من الابتداء، والكل هين على الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. أي: والكل هين على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٨-٨١].

فذكر الله عَزَّوَجَلَّ ثلاث حجج للبعث والنشور:

الحجة الأولى: قياس الإعادة بالبداءة. ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، نسي أن الله عَزَّوَجَلَّ خلقه ولم يكن شيئًا. ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

والحجة الثانية: قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، وذلك أنهم كانوا يقولون: إذا مات الإنسان صار عظامًا، والعظام يابسة، والحياة رطبة، كيف يجتمع رطب بيابس؟

فبين الله عَزَّوَجَلَّ أن هذا لا يعجزه، وضرب مثلاً بالشجرة الخضراء التي يوقد الناس منها النار، فالنار يابسة تخرج من شجرة خضراء، فجمع الله عَزَّوَجَلَّ بين أخضر ويابس. وهذا شيء يشاهدونه، وقد كانوا في الأزمنة القديمة يوقدون النار من بعض الأشجار الرطبة، يدلكون بعضها ببعضها فتخرج النار، فيخرج الله عَزَّوَجَلَّ اليابس من الرطب، ويجمع بين الرطب واليابس، والله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء قدير.

وهكذا هو سبحانه يستطيع أن يوجد الحياة الرطبة في العظام اليابسة، كما أوجد النار اليابسة من الأشجار الرطبة.

ثم ذكر الحجة الثالثة: وهي أنه خلق السماوات والأرض، ومعلوم أن السماء عظيمة، والأرض أيضًا عظيمة، فالذي خلق المخلوق العظيم كيف يعجزه أن يعيد المخلوق الضعيف؟ ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. أي: أكبر من إعادتهم بعد موتهم. وقال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وهكذا ضرب الله عَزَّوَجَلَّ مثلاً بالأرض الميتة يأتي عليها المطر فتحيا بعد موتها: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]. والآيات في ذلك كثيرة. فقرر الله عَزَّوَجَلَّ هذه المسألة تقريرًا ليس له نظير، وهي مسألة البعث والنشور.

فهناك إعادة، وهناك جزاء على الأعمال، والإعادة من أجل الجزاء. ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة التين: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٧-٨]. فكون الله عَزَّوَجَلَّ أحكم الحاكمين، فلابد من يوم الدين، فلا بد من البعث والنشور حتى يجازي العباد على أعمالهم. وأما كون الله عَزَّوَجَلَّ يخلق خلقًا يحصل منهم الظلم والبغي، وتحصل منهم المعاصي الكثيرة، ثم يموتون ولا حساب ولا جزاء، فهذا منافٍ لحكمة الله عَزَّوَجَلَّ، ومنافٍ لعدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٧-٨]. فالبعث والنشور جعله الله عَزَّوَجَلَّ من أجل الجزاء والحساب. فلهذا قال الناظم: (**سَيُعِيدُ اللهُ كُلًّا مِنْهُمْ... وَسَيَجْزِي فَاعِلًا مَا قَدْ فَعَلْ**).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٣-٥٤].

وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]. فالله عَزَّوَجَلَّ يجازي العباد على أعمالهم.

وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وفي مسلم: من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**».

وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٧) أيْ بُنَيَّ اسمعْ وَصَايَا جَمعَتْ	❁	حِكمًا خُصَّتْ بِهَا خَيرُ المِلَلْ

الشرح:

(**أي**): حرف نداء، وقد ذهب جماعة من علماء النحو أنه ينادى به القريب، و"أيا" بالمد ينادى بها البعيد. (**أيْ بُنَيَّ اسمعْ وَصَايَا جَمعَتْ**) فإن كان مخاطبًا لابنه فلا إشكال في ذلك، وإن كان مخاطبًا لغير ابنه، فيكون من باب التحنن وإظهار الشفقة في خطابه؛ فإن الشخص قد يخاطب غير ابنه بمثل هذا الخطاب، يريد بذلك إظهار الشفقة والتحنن. وقد جاء في مسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دعاني النبي ﷺ فقال: «**يَا بُنَيَّ**».

وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يكن ابنا لرسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن استعمل معه هذه الكلمة من باب الشفقة، ففيها إظهار الشفقة والحنو والرفق. وهكذا جاء في مسلم عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: مَا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَحَدٌ عَنِ الدَّجَّالِ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ، فَقَالَ لِي: «أَيْ بُنَيَّ، وَمَا يُنْصِبُكَ مِنْهُ؟ إِنَّهُ لَنْ يَضُرَّكَ». قَالَ قُلْتُ: إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ مَعَهُ أَنْهَارَ الْمَاءِ وَجِبَالَ الْخُبْزِ، قَالَ: «هُوَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ»، ما ينصبك منه: أي ما يشق عليك منه ومن شأنه، فإنه لن يضرك.

والشاهد: أنه قال له: (**أي بُنَيَّ**)، والمغيرة بن شعبة كان كبيرًا.

وفي ذلك مشروعية استعمال هذه الكلمة على سبيل إظهار الشفقة والحنو والرحمة والرفق، (**أي بُنَيَّ**)، وبُنَيَّ تصغير ابن، فابن يصغر على بُنَي.

قال: (**اسْمَعْ وَصَايَا جَمَعَتْ**)، فحث على سماع هذه الوصايا. والسماع أعم من الاستماع؛ فإن الاستماع يكون عن قصد وعن إصغاء: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]، فيكون عن قصد وعن إصغاء، وأما السماع فقد يكون عن قصد وقد يكون عن غير قصد، فالسماع أوسع من الاستماع، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وقال: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]. فالسماع أوسع من الاستماع، قد يكون عن قصد وقد يكون عن غير قصد، وأما الاستماع فيكون عن قصد وعن إصغاء.

والوصايا هي العهد بالشيء الهام، والوصايا جمع وصية، وهي العهد بالشيء الهام. فهذه الوصايا جمعت حِكَمًا، لم تجمع باطلاً، ولم تجمع سفهًا من القول، بل جمعت: (**حِكَمًا**) والحكمة تطلق على القول السديد، وعلى العمل المستقيم الصالح، فالعلم النافع والعمل به يدخلان في مسمى الحكمة، والعلم النافع داخل في مسمى الحكمة، والعمل بالعلم داخل في مسمى الحكمة، وما ذكره هاهنا من قبيل العلم النافع؛ فإنها وصايا علمية، مأخوذة من كتاب الله ومن سنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهي داخلة في مسمى الحكمة.

وهذه الحِكَم: (**خُصَّتْ بِهَا خَيرُ المِلَلْ**) والملل جمع ملة، والمراد بذلك الدين، أي خُصَّ به خير دين، وهو دين الإسلام؛ فإن دين الإسلام جمع من الحِكَم ما لم يجمع غيره، وأكمل الله عَزَّوَجَلَّ به الأديان السابقة.

فكل خير جاء به الإسلام، وكل حكمة وعلم نافع وقول سديد موجود في شريعة الإسلام. فخُصَّت شريعة الإسلام بالحكمة على سبيل الكمال والتمام، وإلا فإن الحِكَم موجودة في الأديان السابقة، لكن شريعة الإسلام خُصَّت باعتبار التمام والكمال؛ فإنها جمعت جميع الحِكَم، وقد أكمل الله عَزَّوَجَلَّ الدين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]. فكل ما يحتاج الناس إليه إلى قيام الساعة فهو موجود في دين الإسلام.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٨) اطلب العِلمَ وَلاَ تَكسَلْ فَمَا ❁ أَبعَدَ الخَيرَ عَلى أهلِ الكَسَلْ

الشرح:

فمن جملة هذه الحِكَم قوله: (**أَطْلُبِ الْعِلْمَ**) فحث على طلب العلم، والعلم إذا ما أطلق، فالمراد به العلم الشرعي: علم الكتاب والسنة، فهذا هو العلم النافع المذكور في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي سنة رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. والعلم النافع أشرف ما يطلب، فبه يعرف العبد ربه عَزَّوَجَلَّ، وبه يعرف العبد دينه، ويعرف به الحق من الباطل، والضلال من الهدى، والخير من الشر، فيمشي على بصيرة، وطريق موصل إلى الجنة. وأقرب طريق موصل إلى الجنة هو طريق العلم.

جاء في حديث أبي هريرة في مسلم قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**». فهو أخصر طريق إلى الجنة. والعلم يوصل إلى المقصود بأقرب طريق حتى في السير الدنيوي، فإن من أراد أن يسير إلى مقصد من المقاصد، فإن كان عالمًا بالطرق المؤدية إلى المقصود، فإنه يصل إلى مقصوده بأقصر طريق، وبآمن طريق، وبأقل وقت. وأمَّا الجاهل الذي لا يعرف الطرق الموصلة إلى الموضع الذي يريده، فإنه ربما يضل، وقد يصل إلى مقصوده بعد وقت طويل، وقد لا يصل بالكلية.

وهكذا طريق الجنة، فيحتاج فيه العبد إلى العلم، فمن كان عالمًا وصل إلى الجنة بأمان، فهو أخصر طريق، وإن كان جاهلاً فقد لا يصل، وقد يصل لكن

بعد مشقة وتعب، وربما يعذب في نار جهنم ما لا يعلم مقداره إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يدخل الجنة إلا بعد أن يناله مكروه شديد، فأقرب طريق إلى الجنة هو طريق العلم.

وقوله رحمة الله عليه: (**أَطْلُبِ الْعِلْمَ**)، وقد عرفنا أن العلم من أشرف الأمور، فالعلم شريف ومنزلته عالية: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يسأله الزيادة من العلم، ولم يأمره أن يسأله الزيادة من شيء غيره، فقال له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. ولما أظهر الله عَزَّوَجَلَّ فضل آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أظهر فضله بالعلم، فعلمه أسماء الأشياء: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]. فأظهر الله عَزَّوَجَلَّ فضله وشرفه بالعلم، وهذا يدل على فضل العلم وعلى شرفه.

ومن شرف العلم وفضله أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قرن شهادة العلماء بشهادته وشهادة ملائكته في أعظم مشهود، وهو توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. وهذا يدل على شرف العلم وعلى شرف العلماء. وهكذا الله وجل استشهد بشهادة العلماء على صدق ما جاء به الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الوحي وهو القرآن، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

وقال: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

فاستشهد الله عَزَّوَجَلَّ بالعلماء في شأن كتابه الذي أنزله على خاتم الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. واستشهد أيضًا بالعلماء في صدق رسالة رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]. فذكر الله عَزَّوَجَلَّ شهادته برسالة رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وشهادة العلماء، وهذا مما يدل على فضل العلم وعلى شرفه وعلو مكانته.

ولو لم يكن من شرف العلم إلَّا أنَّ الجاهل إن وصف به فرح وسره ذلك، وإن وصف بضده فإنه يكره ذلك لكفى به شرفًا، فهذا مما يدل على شرف العلم. فالعلم تريده النفوس وتحبه، وتحب أن توصف به، وتكره أن توصف بضده الذي هو الجهل. وهكذا يقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الصحيحين من حديث معاوية: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**».

وفي حديث سعد بن وقاص عند الحاكم وعند غيره قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ، وَفَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ**».

وفي حديث أبي الدرداء عند أبي داود وعند غيره قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا صَنَعَ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ».

والأدلة الواردة في فضل العلم كثيرة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي سنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فقال: (**أَطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ**)؛ وذلك لأنَّ الكسلان بعيد عن الخير، والكسل هو عدم انبعاث النفس للخير، وعدم الرغبة فيه مع إمكانه، هذا هو الكسل: عدم انبعاث النفس للخير، عدم الرغبة فيه مع إمكانه، فأما إذا كان الخير غير ممكن فيكون حينئذ العجز. فالكسل يكون في الأمر الممكن، فهو عدم انبعاث النفس للخير، عدم الرغبة فيه مع إمكانه، فصاحب الكسل يفوته الخير الكثير، مما يتعلق بالعلم أو بالعبادة، وهكذا يفوته الخير أيضًا مما يتعلق بأمر الدنيا؛ فإن الخير في الدنيا والآخرة لا يناله من كان موصوفًا بالكسل؛ ولهذا كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يستعيذ من ذلك، فجاء في الصحيحين حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْهَرَمِ، وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ».

وفي حديث عائشة في الصحيحين: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَالْهَرَمِ، وَسُوءِ الْكِبَرِ، وَفِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ». فالكسل مذموم، وهو من الشيطان.

وقد جاء في الصحيحين: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ ثَلَاثَ عُقَدٍ إِذَا نَامَ، بِكُلِّ عُقْدَةٍ يَضْرِبُ عَلَيْكَ لَيْلًا طَوِيلًا، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عَنْهُ عُقْدَتَانِ، فَإِذَا صَلَّى انْحَلَّتِ الْعُقَدُ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»، فالكسل من الشيطان، ومما يدعو إليه الشيطان

ومن أسباب إزالة الكسل ما ذكره النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الحديث: وهو إذا استيقظ العبد من الليل فيذكر الله عَزَّوَجَلَّ عند استيقاظه من نومه، فتنحل عقدة من عقد الشيطان، ثم إذا استيقظ انطلق إلى الوضوء فيتوضأ، فتنحل العقدة الثانية من عقد الشيطان، ثم يصلي ما كتب الله له في الليل وما يسر الله له، فتنحل العقدة الثالثة من عقد الشيطان، فيصبح وهو طيب النفس، منشرح الصدر، وإذا نام حتى يصبح بال الشيطان في أذنه –كما في حديث ابن مسعود– ويصبح خبيث النفس كسلان، وهذا شيء يلاحظه الشخص من أحوال الناس، فتجد أصحاب الذكر والصلاة والخير والعبادة في انشراح صدر، وفي انبساط وجه، وفي طيب نفس. ومن كان بعيدًا عن الله عَزَّوَجَلَّ من الغافلين، فإنه يصبح في حالة كئيبة، ونفسٍ خبيثة، وفي غاية من الكسل والخمول.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٩) وَاحتَفِــلْ للفقــهِ في الــدِّينِ وَلا	تَشَّــتغِلْ عَنــهُ بمِــالٍ وخَــوَلْ

الشرح:

(**واحتفل**) بمعنى اهتم بالفقه في الدين. ويقال: أنا محتفل بكذا، أي مبال به، وغير محتفل بكذا، أي غير مبال به، فاحتفل بمعنى: بالي به، واهتم به، واجمعه، وزد منه، وأكثر، فهذا الاحتفال بالشيء هو المبالاة به، وعدم الاحتفال بالشيء هو عدم المبالاة به.

(**وَاحتَفِلْ للفقهِ في الدِّينِ**) يشمل جميع أحكام الشريعة، فيشمل التفقه في التوحيد، وفي العقيدة، وفي المسائل العملية من مسائل الفقه الاصطلاحي، كل ذلك داخل في مسمى الفقه. وقد ذكر العلامة ابن القيم رحمة الله عليه في كتاب "مفتاح دار السعادة" **فقال**:

"لم يكن السلف يطلقون الفقه إلا على العلم الذي يصحبه العمل، فهذا هو الفقه في عرف السلف".

وقد جاء في الصحيحين: من حديث مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَهُوَ يَخْطُبُ يَقُولُ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللهُ**». فمن أراد الله به الخير فقهه في الدين.

ومفهوم ذلك: أن من لم يفقه الله عَزَّوَجَلَّ في الدين لم يرد به خيرًا.

والفقه في الدين – كما عرفنا – يشمل العلم والعمل بالعلم، والفقيه هو الذي يعلم ويعمل بعلمه، فهذا الفقه، وذلك هو الفقيه في عرف السلف، وليس الفقيه

هو الذي عنده علم بالمسائل الخفية والدقيقة، وهو مع ذلك تارك للعمل بأحكام الشريعة أو بكثير منها، وإنما هو العالم العامل بعلمه. وأصل ذلك – كما عرفنا – التوحيد، والاهتمام به من أعظم الواجبات، وهكذا مسائل العقيدة. وبعد ذلك ما يتعلق بالأحكام العملية، وهو الفقه المعروف في الاصطلاح، من أحكام الطهارة والصلاة، ومن أحكام الصيام والحج والزكاة، وكذلك أحكام المعاملات وغير ذلك من أحكام الشريعة، فالاهتمام بهذا الباب مما يحتاج المسلم إليه.

وبقية العلوم هي وسائل لهذه العلوم، فما يسمى بعلوم الآلات، هي عبارة عن وسائل، يأخذ الإنسان منها ما يستعين به على معرفة هذه الأصول من أصول العلم. ولا ينشغل الشخص بالوسائل ويترك العلوم التي هي من قبيل الغايات، وإنما يأخذ منها ما يستعين به على هذه العلوم النافعة التي هي أصل العلوم.

فأما أن يبقى الشخص –مثلاً– منشغلاً بعلم المصطلح في ليله وفي نهاره، ويقضي السنوات الطويلة وهو جاهل بمسائل التوحيد، وجاهل بالعقيدة، وجاهل بأحكام الصلاة والطهارة وغير ذلك من أحكام الشريعة، فليس هذا بسديد.

ولا بأس للإنسان أن يتخصص، لكن لا يضيع أصول العلوم. فله أن يتخصص فإن التخصص نافع ومفيد، فيستفيد من ذلك من يريد تحصيل العلم؛ فإن الذي يريد تحصيل العلم إذا أخذه من المتخصصين ينتفع أكثر، فإذا أخذ كل فن من متخصص فأنه أنفع له، لكن لا يكون الشخص نافعًا لغيره ومضيعًا لنفسه.

فالتخصص -كما عرفنا- ينتفع الغير به، لكن من الخطأ أن يتخصص الشخص ويضيع أصول العلوم، فهذا ليس بصحيح، وأمَّا إذا جمع بين الأمرين فحسن: فيتخصص في علم من العلوم مع المعرفة والنظر والإدراك لبقية العلوم النافعة المفيدة، ولا سيما لأصل العلوم، كتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ فهو أصل الأصول، وهكذا مسائل الصلاة والطهارة والزكاة والحج والصيام، وأحكام المعاملات كالبيوع والأنكحة، وما يتعلق بالحدود وأحكام القصاص وأمور الجهاد وغير ذلك من المسائل الكثيرة التي هي مبسوطة في كتب الفقه، فيهتم الشخص بجميع هذه العلوم.

(**وَلَا ... تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلْ**) أي لا تلتهِ بالدنيا بجمع المال وحطام الدنيا، وتضيع علم الآخرة؛ فإن هذا من الجهل، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

ويقول: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]. فيحرص الإنسان على علم الآخرة، وأن يأخذ من الدنيا ما يحتاج إليه منها، ولا ينشغل بحطام الدنيا عن تحصيل العلم الذي يحتاج إليه؛ فإن العلم أعظم من المال. العلم يوصلك إلى الجنة.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**» رواه مسلم.

والمال إلى أين يوصلك؟

يوصلك إلى الدنيا، تعيش به في الدنيا، ولا يوصلك المال إلى الجنة إلا ما كان في مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، فإن هذا قربة وطاعة وعمل صالح. أما مال ينفق من أجل الدنيا فهو للدنيا، وينتهي بانتهاء الدنيا.

وأما العلم فهو يوصلك إلى مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ وإلى جنة الله عَزَّوَجَلَّ. فالعلم أشرف من المال. والعلم يحرسك، لكن المال أنت تحرسه. العلم يحرسك من الشبهات ومن الضلالات ومن الشهوات المحرمة، فيحميك الله عَزَّوَجَلَّ به من كثير من المهالك والبدع المضلة.

وأما المال فأنت تحرسه في ليلك وفي نهارك، تخشى عليه ممن يأخذه. فالعلم أشرف من المال. العلم يزيد بكثرة الإنفاق منه، والمال ينقص – إلا ما كان في مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ – وإلا فإنه ينقص، والعلم كما قال الألبيري:

يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص إن به كفًا شددت.

فكلما أنفقت من العلم كلما زادك الله عَزَّوَجَلَّ علمًا.

والمال –كما عرفنا– يحصل له شيء من النقصان.

والعلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الملوك والتجار، قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**». رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء.

فشرف العلم عظيم، والعلم أشرف من المال. وإذا حرص العبد على العلم، فإن العلم يرفعه إلى الكمالات في كل شيء، في العمل وفي الأخلاق، ويرفعه

الدرجات العالية في الجنة. فكلما أقبلت من العلم كلما ازددت رفعة وكمالاً وصلاحًا وخيرًا، لكن الدنيا كلما أقبلت عليها كلما أضرتك.

والعلم يدعو إلى الدار الآخرة، لكن المال يدعو إلى الدنيا وإلى شهواتها وإلى ملذاتها.

(وَلَا تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلْ) لا تشتغل عن العلم بالمال والخول؛ لأنَّ العلم أشرف من المال وأشرف من الخول، **والخول** يطلق على الشخص وأهل خدمته والحشم، ويطلق على العبيد والإماء، كل هؤلاء يدخلون في مسمى الخول. فلا تشتغل بهؤلاء وتضيع العلم. خذ من الدنيا ما تستعين به على العلم وعلى مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تنشغل بها انشغالاً يضيع عليك العلم وتنسى الآخرة.

قال رحمة الله عليه:

٢٠) وَاهْجُرِ النَّومَ وَحصِّلهُ فمنْ ❁ يَعرفِ المْطلُوْبَ يَحقِرْ ما بَذَلْ

الشرح:

(واهجر النوم)، والمراد بذلك: كثرة النوم، وليس المقصود أنه يهجر النوم بالكلية؛ فإن النوم لا بد منه. وإذا هجر الشخص النوم بالكلية أضر بنفسه، ولن ينتفع بعد ذلك بعلم ولا بغيره، وإذا هجر النوم بالكلية لكن ينبغي أن ينام النوم الشخص الذي يحتاج إليه.

وبدن الشخص كالمطية، كالمركوب من الإبل والخيل، فإن أجهد مركوبه فإنه لا يبقى له. وهكذا إذا أجهد الإنسان نفسه فإن نفسه لا تبقى له ولا تطاوعه.

فيحتاج الإنسان أن يعطي نفسه ما تحتاج إليه من الراحة بقدرها، من المأكل والمشرب بقدرها، ولا يترك النوم بالكلية، فليس هذا من هدي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا من هدي الأنبياء والمرسلين. وهكذا أيضًا لا يمكن للشخص أن يترك النوم بالكلية.

وفي حديث أنس في الصحيحين: قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ، للثلاثة النفر: «**أَنْتُمُ الَّذِي قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

وهؤلاء تقالُّوا عبادة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقال بعضهم: وأما أنا فأصلي ولا أنام، فقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن نفسه: "**وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ**". وقال في آخر الحديث: "**فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**". فالنوم من سنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقيام الليل من سنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالجمع بينهما من سنة رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وفي حديث سلمان في الصحيحين، في قوله لأبي الدرداء: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**». فقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له حين بلغه الخبر: صدق سلمان. فالإنسان لنفسه عليه الحق: إن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا – وفي لفظ: ولزورك- أي لضيفك وزائرك عليك حقًا – فأعط كل ذي حق حقه»، فلما بلغ الخبر للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**صدق سلمان**».

فلله عَزَّوَجَلَّ حق، وللبدن حق، وهكذا لأهله ولضيفه، فيؤدي جميع الحقوق، ولا يضيع حق من أجل حق آخر، بل يعطي كل ذي حق حقه.

فقوله: (**وَاهْجُرِ النَّوْمَ**) المراد بذلك: كثرة النوم، أي لا تكن كثير النوم، نم بقدر ما تحتاج إليه، واجتهد في طلب العلم.

وإن كان المقصود اهجر النوم أي ليلاً ونم نهارًا أيضًا فلا يستقيم؛ فإن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان ينام ويصلي، يجمع بين الأمرين، فيحمل القول على هجر النوم أي هجر ما لا يحتاج إليه من النوم، فلا يكثر منه.

وكان هناك ممن مضى من كان يسهر في الليل، لا أنه لا ينام بالكلية، لكن يسهر لالتماس العلم ولحفظه ولتدوينه ومعرفته. فهذا جاء عمن مضى، فيحكى هذا عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهكذا يحكى عن الإمام البخاري أنه كان يستيقظ في الليلة أكثر من عشرين مرة.

وهكذا عن الإمام الشافعي وعن جماعة ممن مضى، فكانوا يستيقظون في الليل ويسرجون السرج وينيرونها ويكتبون ما ظهر لهم وما فتح الله عليهم من العلم.

قال: (**وَحَصِّلْهُ**) أي اجمع العلم، (**فَمَنْ...يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ**) أي من يعرف شرف المطلوب، فإنه يحقر ما بذل، فيرى أن ما بذله شيئًا حقيرًا.

وَمَنْ يُصَطْبِرْ لِلْعِلْمِ يُظْفَرْ بِنَيْلِهِ وَمَنْ يَخْطُبِ الْحُسْنَى يُصَبِّرْ عَلَى الْبَذْلِ

فمن علم شرف ما يطلب، احتقر ما يبذل. والعلم من أشرف الأمور، وقد ذكرنا جملة من أدلة الكتاب والسنة فيما مضى في شرف العلم وعلى علو منزلته. فكون الإنسان يترك كثيرًا من راحته من أجل تحصيله، ويبذل كثيرًا من راحته من أجل تحصيله، فما بذله حقير بالنسبة لما يطلب. والعلم لا ينال بالكسل، ولا

بكثرة النوم، ولا بالانشغال بالقيل والقال. والعلم إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، فكيف إذا أعطيته بعضك، كم تنل منه؟.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(٢١) لاَ تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أربابُهُ ❁ كُلُّ مِنْ سارَ عَلى الدَّربِ وَصَلْ

الشرح:

(**لاَ تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أربابُهُ**)، أي: ذهب أصحاب العلوم، وذهب العلماء، وانتهى أمرهم، ولا يمكن للشخص أن يصير منهم. فهذا من الشيطان. بل كما قال ابن الوردي رحمة الله عليه: (**كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ**)، فمن سار على درب العلماء، وصل إلى منزلتهم. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كريم، فمن حرص على العلم وسعى في تحصيله، واتقى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأخلص فيه، فإنه يصل إلى مطلوبه بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، ويكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بالعلم النافع، ويعليه إلى مراتب العلماء. فكل من سار على الدرب وصل. والمطلوب هو الجد والاجتهاد في تحصيل العلم في جميع الأوقات، وفي الكبر والصغر.

والشيطان قد يأتي للشخص في حال الكبر ويقول: أنت كبير، لن تنتفع بالعلم، لا تطلب العلم، أنت كبير، كيف تؤمل أن تصير عالماً وأنت بهذا السن؟ لا تؤمل هذا الأمل، هكذا قد يأتي الشيطان للعبد، وليس هذا بصحيح. هنالك من طلب العلم في الكبر وهم كثر، ونالوا العلم وصاروا من العلماء الكبار، كصالح بن كيسان من التابعين رحمة الله عليه، وهو من العلماء الكبار، طلب العلم في سن متأخر.

ذكر الحاكم رحمة الله عليه أنه طلب العلم في سن السبعين، ورد ذلك الحافظ الذهبي رحمة الله عليه في "السير" وفي "تاريخ الإسلام،" وبين أنه طلب العلم في الكبر وهو كهل، إلا أنه لم يصل إلى هذا السن وهو سن السبعين، ومع هذا فقد صار من العلماء الكبار، وهو ممن لم يطلب العلم مبكرًا، ومع منَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليه، وفضل الله عَزَّوَجَلَّ واسع.

وهكذا أبو بكر القفال، الذي يقال له القفال الصغير – وهناك القفال الكبير – والقفال الصغير عبد الله بن أحمد من علماء الشافعية، انشغل ببيع الأقفال وبصناعة الأقفال فترة من الزمن إلى الثلاثين من عمره، وكان فيه ذكاء وفطنة، فدعته نفسه إلى طلب العلم وهو في الثلاثين من عمره، فاتجه إلى طلب العلم، فبارك الله له في عمره، وصار من علماء الشافعية المشهورين الذين تنقل أقوالهم، ومن الذين نشروا مذهب الإمام الشافعي رحمة الله عليه.

فهناك من طلب العلم في الكبر وبارك الله له في عمره، وابن حزم أيضًا طلبه في الكِبر، في السادسة والعشرين من عمره أو أكثر من ذلك، وهكذا الشيخ مقبل رحمة الله عليه، فاته شيء من الزمن، وطلب العلم في الكبر، فبارك الله له في وقته وفي عمره وفي دعوته، ونشر الخير والسنة والعلم في اليمن وفي غيرها، وبارك الله عَزَّوَجَلَّ له في دعوته بركة عظيمة، وفضل الله عَزَّوَجَلَّ واسع، فيحتاج العبد إلى أن يجد ويجتهد، ولا يأتيه الشيطان، وليحرص على العلم في جميع أوقاته، في صحته وفي مرضه.

ويذكر عن ابن مالك صاحب الألفية من أئمة النحو، أنه في يوم موته حفظ خمس شواهد رحمة الله عليه من شواهد النحو، وهكذا في ترجمة ابن الجوزي

أنه كان يحضر مجالس القراءات وهو في الثمانين من عمره مع ولده يوسف، وهكذا كان من مضى كانوا يحرصون على أخذ العلم وعلى تعليمه وعلى مدارسته، ولو في حال الكبر، بل عند نزول الموت يحرصون على بذله وعلى مدارسته؛ يفعلون هذا في وقت حضور الموت وشدة المرض، وقد ذكر الذهبي رحمة الله عليه في ترجمة شيخه الذي يقال الصفي الهندي، أنه جاءه ونفسه يتحشرج في وقت موته.

وكان الذهبي يحتاج إلى حديثين من مرويات ذلك الشيخ، فأخذ منه حديثين ونفسه تتحشرج أعني: –نفس الصفي الهندي– ومات رحمة الله عليه.

وهكذا ابن أبي حاتم في مقدمة الجرح والتعديل، ذكر أنه جاء إلى أبيه ووالده في النزع، قال: وأنا لا أدري، فقلت له: عقبة بن عبد الغافر الذي يروي عن النبي ﷺ، هل له صحبة؟ فأشار أبو حاتم رحمة الله عليه برأسه أن لا – وذلك من شدة ما بنزل به – وكان في النزع فما استطاع الكلام، وشق عليه الكلام، فأشار برأسه. فقال ابن أبي حاتم: فلم أقنع منه بذلك، فقلت: أفهمت عني؟ ألـه صحبة؟ فقال: لا، هو تابعي. ثم مات رحمة الله عليه.

فمن مضى من أهل العلم كان عندهم الحرص على بذل العلم وتبليغه في هذه الأوقات الشديدة، وهكذا يحرصون على تحصيله في كبر السن وفي جميع الأحوال، وبهذا نالوا العلم ونالوا المراتب العالية بالجد والاجتهاد والحرص البالغ عليه. ومن سار بسيرهم فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كريم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٢) في ازدِيادِ العِلمِ إِرغْامُ العِدى ❁ وَجمَالُ الْعِلمِ إِصلاَحُ الْعَملْ

الشرح:

(**في ازدِيادِ العِلمِ إِرغْامُ العِدى**): من ازداد علماً أرغم أعداءه، وكلما ازداد علماً كلما أرغم الأعداء. والإرغام: دس الأنف في الرغام الذي هو التراب، فإذا زاد العبد علماً أرغم أعداءه، فإن صاحب العلم هو صاحب الحجة، وصاحب الظهور والقوة، وسلاحه من أقوى الأسلحة، وجهاده من أعظم الجهاد: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]. وهو الجهاد بالقرآن وبالعلم.

والمتأمل لأحوال العلماء يجد مصداق ما ذكره ابن الوردي رحمة الله عليه. فمن ازداد علماً قويت حجته، وأرغم أعداءه من أهل الباطل، ومن هذا الباب ما حصل من عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في مناظرته مع الخوارج الذين انحازوا عن جيش المسلمين إلى حروراء، وكان عندهم بعض الشبه، فذهب إليهم عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وناظرهم المناظرة المشهورة، وأفحمهم بأجوبة قوية سديدة، وكان يقول لهم في كل شبهة جاءوا بها وأجاب عنها: أخرجتم من هذه؟ **فيقولون**: خرجنا. ثم ينتقل بهم إلى شبهة أخرى، ويجيب عليها بالقول السديد والحجة الدامغة، **ويقول لهم**: أخرجتم من هذه؟ إلى أن أزال جميع ما جاءوا به من الشبه وأبطلها، ورجع من رجع منهم ممن أراد الله عَزَّوَجَلَّ له الخير، وبقي من

بقي على ضلاله وانحرافه. فصاحب العلم كلما ازداد علمـًا، كلما ازداد ظهوراً وقويت حجته على أهل الباطل.

وهكذا من هذا القبيل مناظرة الإمام أحمد رحمة الله للجهمية، والمتأمل فيها يجد قوة الحجة عند الإمام أحمد رحمة الله عليه، لما عنده من قوة العلم، فأرغم الله عَزَّوَجَلَّ به الجهمية.

وهكذا المناظرة الشهيرة "بالحيدة" لعبد العزيز المكي الكناني رحمة الله عليه – وإن كان حولها نزاع، أعني من حيث الثبوت، فقدح في ثبوتها الحافظ الذهبي – وكثير من أهل العلم أوردوها واستحسنوها، واشتهرت في أوساط العلماء، وأثنوا عليه خيرًا، ونقلوا جملة من فقراتها في كتب العقيدة، كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم.

فالمناظرة اشتهرت في أوساط العلماء، والمتأمل فيها يجدها مناظرة قوية، تدل على التمكن في العلم، فناظر المريسي وأفحمه بالحجج القوية، وهي مناظرة نافعة مفيدة شيقة، سواء ثبتت أو لم تثبت، فهي مناظرة قوية تدل على قوة الحجة عند أهل العلم. وأن العبد كلما ازداد علمـًا أرغم أعداءه بالحجة والبيان: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وهكذا مناظرة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه للأشاعرة في زمنه، ومن جملة ذلك مناظرة شيخ الإسلام ابن تيمية في شأن العقيدة الواسطية، وقد عقدت عدة مجالس دونها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه، وهي تدل

على ما من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به على شيخ الإسلام من القوة في باب العلم، ومحاججة أهل الباطل بالحجج القوية الدامغة.

وهكذا محاججات العلماء لليهود والنصارى، ولأهل العلم المحاججات الكثيرة في ذلك، كشيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم، فحاججوا اليهود والنصارى بالحجج القوية الدامغة.

وهكذا محاججة الدارمي للجهم، وغير ذلك من المحاججات الكثيرة لأهل العلم، تدل على أن العبد إذا ازداد علمًا أرغم أعداءه بما عنده من العلم والحجة والبيان.

فزيادة العلم إرغام العداء، وهكذا كلما ازددت علمًا كلما أرغمتَ أعداءك، وإن لم تكن بينك وبينهم شيء من المحاججة والمخاصمة؛ فإن العدو حاسد، لا يريد أن يمن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليك بأي نعمة من النعم، ومن أعظم النعم نعمة العلم. كلما ازددت علمًا انغاض عدوك، واندس أنفه بالتراب. وكلما ازددت علمًا كلما أرغمته؛ فإن نعمة العلم من أعظم النعم، وشرف العلم شرف عظيم.

(وَجَمَالُ الْعِلْمِ إِصْلَاحُ الْعَمَلْ) فعلم بغير عمل كشجرة بغير ثمر، فهو علم لا ينفع.

وقد جاء في مسلم: من حديث زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**».

ومن جملة العلم الذي لا ينفع: العلم الذي لا يثمر العمل، فإنه علم لا ينفع: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**»، والعبد يتعلم العلم ليرفع عن نفسه الجهل، وليعبد الله عَزَّوَجَلَّ على بصيرة، وليعلم غيره، فهذه النية الصالحة، وهذا هو العلم

النافع. تتعلم العلم لترفع الجهل عن نفسك، وتعبد الله على بصيرة، تعمل بعلمك، وتعلم غيرك ما علمت من العلم. وبهذا تنجو من الخسارة، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]. فهذا هو العلم النافع، العلم المثمر للعمل.

وجاء في حديث مُعَاذٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ كَيْفَ عَمِلَ فِيهِ**». فالعبد مسؤول عن علمه، ماذا عمل فيه.

(**وَجَمَالُ الْعِلْمِ إِصْلَاحُ الْعَمَلْ**) هذا جمال العلم، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فلباس التقوى هو اللباس الجميل النافع، فلباس التقوى أحسن من لباس البدن؛ فإن لباس البدن تتقي به أو تستر به العورة الحسية، ولباس التقوى تستر به العورة المعنوية، فالمتقي يستر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عوراته، ويظهر للناس محاسنه. وتأملوا في أخبار من مضى من أهل العلم الفضل، ذكرت محاسنهم وانتشرت، وبقيت محاسنهم، وستر الله عَزَّوَجَلَّ معايبهم، فبقيت محاسنهم تذكر، وهم يذكرون بالخير من أهل العلم ومن أهل الفضل؛ لأنهم لبسوا لباس التقوى، وأمَّا الذي يلبس اللباس الحسي فإنه يقي جسده من البرد ومن الحر وغير ذلك، ومن لبس لباس التقوى فإنه يقي نفسه من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ. فلهذا كان لباس التقوى خير.

والعامل بعلمه قد كساه الله عَزَّوَجَلَّ لباس التقوى، فجمله الله عَزَّوَجَلَّ بهذا اللباس.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٣) جَمِّـلِ المَنطِـقَ بـالنَّحو فَمـنْ ❁ يحُـرَمِ الإعـرْابَ بـالنُّطقِ اخَتبَـلْ

الشرح:

فبعد أن حث على العلم مطلقًا، وبين شرف العلم، وبين شيئًا من فضله، وبين أن جمال العلم بالعمل، حث على نوع من أنواع العلوم، وهو علم النحو، فقال: (**جَمِّلِ الْمَنْطِقَ بِالنَّحْوِ**) وعلم النحو من جملة العلوم النافعة والمفيدة، غير أن أصل العلوم هو: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا أصل الأصول: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وهكذا علم العقيدة، فهذه هي الأصول العظام، وهذا هو أعظم العلم، فمن حققه كان من الفائزين المفلحين، ومن حرمه كان من الخاسرين.

فأول ما يحث عليه من العلم هو علم التوحيد والعقيدة، ثم بعد ذلك الفقه، علم الفقه، فالعبد يحتاج إلى أن يعرف أحكام الطهارة وأحكام الصلاة وأحكام الصيام وغير ذلك من العبادات، وأحكام المعاملات. وعلم النحو من الوسائل، وهو علم نافع، لكن تلك العلوم أشرف وأعظم.

وعلم النحو -كما ذكر ابن الوردي ها هنا- أنه من جمال المنطق، فمن جمال المنطق النحو، فقال: (**جَمِّلِ الْمَنْطِقَ بِالنَّحْوِ**) فمن يحرم الإعراب بالنطق اختبل. وكما قيل:

إِنَّـــهُ زَيْـــنٌ وَجَمَـــالٌ يُلْـــتَمَسْ ❁ يَأْخُـذُ مِـنْ كُـلِّ الْعُلُـومِ بِـالنَّفَسْ

صَـــاحِبُهُ مُكْـــرَمٌ حَيْـــثُ جَلَـــسْ ❁ هَـلْ يَسْـتَوِي رَبُّ الْحِمَـارِ وَالْفَـرَسْ

وقال الشعبي رحمة الله عليه: النحو في العلم كالملح في الطعام، لا يستغنى عنه. أي أنه يحسنه، ويحسن أيضًا المنطق. فهو من العلوم النافعة، ويعين الشخص على فهم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى فهم سنة رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويقوي ملكة الاستنباط.

ولهذا قال الإمام الشافعي في علماء العربية: قال: هم جن الإنس، فهم يعرفون ما لا يعرف غيرهم. فعندهم معرفة لدقائق الأمور، فإذا جاءوا إلى التفسير خاضوا في دقائق المسائل، واستنبطوا الاستنباطات الحسنة الغريبة، وإذا جاؤوا إلى الأحاديث النبوية أيضًا استنبطوا الاستنباطات الحسنة؛ لأن كلام الله عَزَّوَجَلَّ كلام عربي، وكذلك كلام رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والله عَزَّوَجَلَّ قال عن كتابه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وعلماء النحو عندهم مكنة في هذا الباب، فيقفون على ما لا يقف عليه غيرهم من المعاني الدقيقة، فهو من العلوم النافعة المفيدة، وليس مجرد جمال المنطق فقط كما ذكر ابن الوردي رحمة الله عليه، فهذا بعض فوائده: تجميل المنطق، لكن هناك ما هو أعظم من ذلك، وأنه يعين على فهم الكتاب والسنة فهمًا صحيحًا، ويعين على استنباط الأحكام من وجوه خفية دقيقة.

(**فَمَنْ يُحْرَمِ الإِعْرَابِ بِالنُّطْقِ اخْتَبَل**)، أي دخله الفساد. والخبل بمعنى الفساد: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]. أي: ما زادوكم إلا فسادًا.

فمن حرم الإعراب اختبل نطقه، أي نطق بالنطق الفاسد والمعاني الفاسدة. فإنه قد يأتي –مثلاً– يريد أن يعبر بالتعبير الصحيح، فيعبر بالتعبير الفاسد، كأن يقول: أكل محمدٌ السمكةَ، إذا به يقول: أكل محمدًا السمكةُ، فتكون السمكة

هي التي أكلت محمدًا، فقد يحصل له اختبال، أي فساد النطق، فيؤدي إلى فساد المعنى.

والمؤلف رحمة الله عليه كان له الباع الواسع في علم النحو.

وأئمة علماء النحو هم علماء البصرة، وأما علماء الكوفة فإنما استفادوا من أهل البصرة، ولهذا فإن علماء البصرة في النحو أقوى من علماء الكوفة، ومذهبهم أتقن وأصح من مذهب علماء الكوفة، وأصل العلم جاء من جهتهم.

(فَمَنْ...يُحْرَمِ الْإِعْرَابَ بِالنُّطْقِ اخْتَبَلْ) ولا يكاد يسلم من اللحن أحد، إلا من سلمه الله عَزَّوَجَلَّ، حتى من كان في الأزمان القديمة. ولهذا تجدون بعض العلماء في كتب التراجم ينصون على بعض العلماء وأنه لم يكن يلحن، فإن هذا من الأمور النادرة. فذكروا هذا عن قتادة، وعن همام، وعن حماد بن سلمة، وعن الشعبي، وإنهم كانوا لا يلحنون قط، وكان هذا من الأمور المستغربة؛ فإنه لا بد من شيء من اللحن والزلل في المنطق، ومهما كان الشخص عالمًا بالعربية، فلا بد له من شيء من اللحن والزلل، وكان كثير ممن مضى يلحن ويكثر من اللحن، ونقل هذا عن هشيم، وعن ابن عدي صاحب "الكامل"، وهكذا عن أبي شيبة إبراهيم العبسي، بل كان فاحشًا في اللحن، حتى قال له رقبة رحمة الله عليه: لو كان لحنك من الخطايا لكانت من الكبائر أو من العظائم، وهكذا ينقل عن إياس بن معاوية وعن جماعة.

لكن على أقل الأحوال أن الشخص إذا تعلم النحو قل خطؤه، وقل لحنه. أما أن يسلم من اللحن بالكلية، فهذا لا يكاد يسلم منه أحد.

وقوله: (جَمِّلِ الْمَنْطِقَ بِالنَّحْوِ فَمَنْ...يُحْرَمِ الْإِعْرَابَ بِالنُّطْقِ اخْتَبَلْ) والمراد أن نطقه يفسد إذا حرم الإعراب.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه له الباع الواسع في هذا، ومع هذا لم يسلم، فكان يكتب كتابة سريعة، فلم يسلم من اللحن في بعض المواضع مع سعة معرفته بالنحو. ومعلوم ما حصل بينه وبين أبي حيان، إمام العربية في زمنه، وقد كان يوصف بأنه إمام أهل زمانه في النحو، ويقال فيه: سيبويه زمانه. فحصل بينه وبين شيخ الإسلام مناقشة في بعض مسائل النحو، فأفحمه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه، فقال لشيخ الإسلام: هذا خلاف ما ذكره سيبويه في الكتاب.

فقال له شيخ الإسلام: أسيبويه نبي النحو؟!.

استنكر عليه الاحتجاج بكلام سيبويه في هذه المسألة التي أفحمه فيها باعتبار الحجة، فتمسك بكلام سيبويه، فقال: أهو نبي النحو؟ لقد أخطأ سيبويه في الكتاب في ثمانين موضعًا لا تعلمها أنت ولا هو.

ثم حصلت الوحشة بينه وبين شيخ الإسلام، وكان قبل ذلك يثني على شيخ الإسلام وذكر أبياتًا في الثناء عليه والدفاع عنه، ثم حصلت الوحشة بينه وبين شيخ الإسلام، وصار إذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ذكره بالسوء. وأبو حيان إمام من أئمة اللغة الكبار، وصاحب استنباطات عجيبة، وانتقادات لمن مضى، وعنده دقة في معرفة العربية والنحو، لكن كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه أمكن منه، وتكلم معه بما أفحمه به، ولكن لما ذكر سيبويه بهذا الكلام استعظم؛ فإن سيبويه عند النحاة كما يقال خط أحمر، وهو من علماء النحو

الكبار، صاحب الكتاب المعروف، واسمه "الكتاب" في النحو، غالبًا يذكر فيه عن شيخه الخليل، أكثر ما في الكتاب أو أغلب ما في الكتاب سؤالات لشيخه الخليل بن أحمد، وفيه تقريرات كثيرة أيضًا من كلامه رحمة الله عليه، وهو إمام لمن جاء بعده من النحاة، لكنه غير معصوم، المعصوم رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والعالم مهما اتسع في العلم يصيب ويخطئ، ويكفيه فخرًا أن يكون صوابه أكثر من خطئه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٤) انظُمِ الشِّعرَ وَلازِمْ مَذْهَبِي	❁	في اطِّراحِ الرَّفدِ لاَ تبغِ النَّحَلْ
٢٥) فَهوَ عُنوانٌ عَلَى الْفَضلِ وَمَا	❁	أحسَنَ الشِّعرَ إِذْا لَمَ يُبتذلْ

الشرح:

يقول رحمة الله عليه: (**انظُمِ الشِّعرَ وَلاَزِمْ مَذْهَبِي**) حث على نظم الشعر، ونصح بملازمة مذهبه في ذلك، وبين مذهبه فقال: (**وَلاَزِمْ مَذْهَبِي ... فِي اطِّرَاحِ الرِّفْدِ**)، **بمعنى**: ارمِ ولا تبالي بالعطاء والصلة، فالرفد بمعنى العطاء والصلة، اطرح ذلك، وارمِ به ولا تبالي به، أي لا تطلب في شعرك شيئًا من العطاء. (**لَا تَبْغِ النَّحَلْ**) أي لا تبغي العطايا، فالنحل بمعنى العطايا، ونحلت بمعنى أعطيته.

وذلك أن كثيرًا من الشعراء، لا سيما في الأزمان القديمة، كانوا ينظمون الشعر لأجل الدنيا، فيمدحون الملوك والأمراء والقادة والعظماء، ويريدون بذلك شيئًا من حطام الدنيا، فإن أعطوا بالغوا في المديح، وإن منعوا بالغوا في الذم.

فمدحهم من أجل الدنيا، وذمهم من أجل الدنيا، وهذا شعر حقير، ومهنة ممتهنة. والشعر إذا أريد به الدنيا فليس بشعر حسن.

وأما إذا أريد به وجه الله والدار الآخرة، كالذب عن الإسلام وعن أهل الإسلام، والرد على المبطلين، كشعراء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، كحسان وغيره، فهذا شعر محمود، وهو من الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ: «اهْجُهُمْ، أَوْ هَاجِهِمْ، وَجِبْرِيلُ مَعَكَ» كما جاء في الصحيحين من حديث البراء وكان يأذن لحسان بإلقاء الشعر بين يديه وفي المسجد، فالشعر إذا كان من هذا القبيل فهو حسن.

وهكذا الشعر الذي يراد به تقريب العلوم وتسهيل العلوم الشرعية، كالمنظومات التي يفعلها العلماء لتقريب العلوم ولتسهيل حفظها، فهذا شعر نافع ومفيد. وأما الشعر من أجل الدنيا وشهوات الدنيا، فهذا شعر غير حسن، ومهنة ممتهنة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧]. فبين الله عَزَّوَجَلَّ أن الشعراء يتبعهم الغاوون، والغاوي خلاف الراشد، وهو المتبع لهواه ولشهوته، فهؤلاء هم أتباع الشعراء. فيأتي الشاعر ويهجو بالباطل، ويتبعه من كان غاويًا، ويأتي شاعر آخر يهجو ويتبعه من كان غاويًا.

فالشعراء كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، بعكس صاحب الحق فإنَّه ثابت؛ لأن الحق واحد، وصاحب الحق متبع للكتاب وللسنة، ومنضبط بكتاب الله وسنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلا يهيم. وأما الشعراء فهم في كل واد يهيمون، فما في شيء يضبطهم، فتارة يمدحون وتارة يذمون، فإن أعطوا العطاء بالغوا في المدح والثناء، **كما قال بعض العلماء**: يجعلون أجبن الناس عنترة، وأبخل الناس حاتمًا، وهذا إذا أعطوا شيئًا من الدنيا، فيهيمون في كل باطل، ويتكلمون بالحق والباطل، ويغالون في الثناء، ويغالون في الذم، فهم كالهائم الذي ليس له مقصد معين، بعكس صاحب الحق فإنَّ له مقصدًا معينًا وطريقًا معينًا فلا يتجاوز ذلك الطريق، أما هؤلاء فهم يهيمون تائهون، فما في رادع يردعهم، فيتنقلون من باطل إلى باطل. ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. ربما حثوا على شيء من الجود والكرم والشجاعة، وهم لا يفعلون ذلك، وربما يحذرون من بعض الشرور، وهم واقعون في ذلك، وقد يتحدثون أيضًا عن أنفسهم أنهم فعلوا وفعلوا، وليس الأمر كذلك، فلم يفعلوا شيئًا من ذلك.

فهؤلاء هم الشعراء إلا من استثناه الله عَزَّوَجَلَّ، وهم القليل، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. استثنى الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء: وهم من حقق الإيمان والعمل الصالح وذكر الله كثيرًا. قال بعض العلماء: لم يشغله الشعر عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، بل هو من الذاكرين الله عَزَّوَجَلَّ كثيرًا. وقال بعضهم: أي كان ذاكرًا لله في شعره كثيرًا، فشعره من أجل الله عَزَّوَجَلَّ، فيذكر الله

عَزَّوَجَلَّ في شعره كثيرًا. ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ كحسان وكغيره من الشعراء الذين انتصروا حين ظلموا من جهة المشركين.

فكان أهل الشرك يهجون الإسلام والمسلمين ويهجون رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيحصل منهم الظلم والبغي، فيأتي شعراء الإسلام فينتصرون لرسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وينتصرون للإسلام والمسلمين، فهؤلاء لا لوم عليهم، وقد استثناهم الله عَزَّوَجَلَّ من ذلك الذم.

فالشعر كما يقال: كلام، حسنه حسن، وقبيحه قبيح.

وجاء في البخاري عن أبي بن كعب قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً**». والشعر الحسن كان يستمع إليه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كاستماعه لشعر حسان. بل جاء في مسلم من حديث الشريد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال له: هل تحفظ شيئًا من شعر أمية بن الصلت؟ وهو من شعراء الجاهلية، وقد اتفق العرب أنه أشعر أهل ثقيف، وكان في شعره الحكمة. فقال له: تحفظ شيئًا من شعر أمية بن الصلت؟ فقال: نعم.

فذكر له بيتًا، والنبي عليه وسلم يستطعمه حتى قرأ على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مئة بيت من أبيات أمية بن الصلت، وقد قال فيه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: « «**فَلَقَدْ كَادَ يُسْلِمُ فِي شِعْرِهِ**» » رواه مسلم، وجاء في الصحيحين؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَتْهَا الْعَرَبُ قَوْلُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ، وَإِنْ كَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ لَيُسْلِمُ**».

وذكر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذلك البيت من أبيات لبيد، وقد أسلم رضي عنه، وكان من فحول الشعراء، غير أنه لما أسلم ترك الشعر بالكلية. فقال له عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ –أو سأله– عما قاله بعد إسلامه من الشعر.

فقال: أغناني الله عَزَّوَجَلَّ بالبقرة وآل عمران. فترك الشعر واتجه إلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو الخير، فالاتجاه إلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ خير، والاستغناء بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ هو الخير.

والإكثار من الشعر والمغالاة فيه والإكثار من حفظه مما جاء الذم فيه بالأحاديث الكثيرة. ففي الصحيحين من حديث؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ الرَّجُلِ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا». وحمله بعض العلماء على الإكثار من ذلك – فيكثر من الشعر، ويكون ما يحفظ من الشعر أكثر مما يحفظ من القرآن ومن أحاديث رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. وهناك من حمله على الشعر القبيح، والشعر الماجن، أو الشعر الذي فيه هجو لرسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو للإسلام.

وهذا مما رده بعض العلماء باعتبار أن اليسير من ذلك يحرم، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذكر الامتلاء، لو كان المراد بذلك الشعر القبيح والشعر المحرم، فإنه يحرم منه اليسير فضلاً عن الكثير، فلهذا ذهب الجماعة من أهل العلم إلى أنَّ المراد بذلك الإكثار من الشعر، بحيث أن الشخص يحفظ من الشعر أكثر مما يحفظ من القرآن، وينشغل به عما هو أهم منه.

فالانشغال بعلوم الشريعة، بكتاب الله وبسنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أليق بالشخص من أن ينشغل بالشعر والإكثار منه، وقد كان الإمام الشافعي رحمة الله

عليه في أول حياته مقبلاً على العربية وعلى الأدب والشعر، وكان من الشعراء الفحول، فضربه كاتب الزبيري بعصاه في يده -أو بسوط في يده- وقال له: عليك بالفقه، فأثرت هذه على الإمام الشافعي.

وهكذا سمع مناديًا يناديه ويقول: عليك بالفقه، فترك ذلك واتجه إلى الفقه.

وكان من أبياته أن قال:

وَلَــوْلَا الشِّــعْرُ بِالْعُلَمَــاءِ يَــزْرِي ... لَكُنْــتُ الْيَــوْمَ أَشْــعَرَ مِــنْ لَبِيــدِ
وَأَشْــجَعَ فِــي الْوِغَــاءِ مِــنْ كُــلِّ لَيْــثٍ ... وَآلِ مِهْلَــــبٍ وَأَبِــــي يَزِيــــدِ
خَشِــــيَّةَ الــــرَّحْمَنِ رَبِّــــي ... حَسِــبْتُ النَّــاسَ كُلَّهُــمْ عَبِيــدِ

والشاهد أنه قال:

وَلَــوْلَا الشِّــعْرُ بِالْعُلَمَــاءِ يَــزْرِي ... لَكُنْــتُ الْيَــوْمَ أَشْــعَرَ مِــنْ لَبِيــدِ

والعلامة الشنقيطي رحمة الله عليه لما قرأ كلام الإمام الشافعي في ذلك ترك الشعر، وانشغل بالعلم، فالانشغال بالعلم خير، والشعر إذا لم ينشغل الإنسان به، وإنما أخذ منه ما يحتاج إليه، وقاله ونظمه على حسب الحاجة والمصلحة، من غير إكثار وانشغال به، فقد قَالَ فيه رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً»، لكن لا ينشغل الإنسان به عما هو أهم منه، فيشغل نفسه ويشغل وقته. وبعض الناس ربما يتعسر عليه الشعر فيتكلفه تكلفًا، فإذا أراد أن ينظم قصيدة شغلته في ليله وفي نهاره، فينشغل عن العلم، وعن مراجعة العلم، وعن القرآن، وعن مراجعة القرآن، في قصيدة من القصائد، فإذا أتمها راودته نفسه إلى أخرى، وذلك من جهة تزيين الشيطان له، يريد أن يشتغله عما هو أهم من ذلك.

وكان الشعر على من مضى سهلًا يسيرًا، فربما يأتون بالقصائد الطويلة على البديهية من غير تكلف ومن غير مشقة. وأما في هذه الأزمان فالتكلف حاصل والمشقة حاصلة باعتبار الأمر الغالب.

فعلى كلٍ: لا ينشغل الإنسان به انشغالًا كثيرًا، فإن سَهُلَ عليه الشعر من غير انشغال، وفعله عند الحاجة إليه، كالانتصار للسنة وأهلها، ومقارعة أهل الباطل، أو أراد أن يُقرِّب بعض العلوم بشيء من النظم، فهو أمر حسن.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٦) فَهوَ عُنوانٌ عَلَى الْفَضلِ وَمَا ❁ أَحسَنَ الشِّعرَ إِذَا لَم يُبتَذَلْ

الشرح:

قال: (**فَهوَ عُنوانٌ**): يقال: عنوان بضم العين وهو الأفصح - أي أنه أبرز شيء وأظهر شيء (**عَلَى الفَضلِ**) يدل على فضل الشخص، وعنوان الكتاب يكون بارزًا في أعلاه، فالشعر من أبرز الأشياء وأظهر الأشياء في فضل الشخص، وما قاله رحمة الله عليه فيه نظر؛ فإن كرامة المرء عند ربه عَزَّوَجَلَّ بالتقوى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]. فكرامة العبد بتقواه لله عَزَّوَجَلَّ. وكذلك بالعلم النافع، وهو من التقوى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:

١١]. ففضل الشخص وعلو منزلته بالعلم النافع والعمل الصالح، بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

أما الشعر فهو كلام، حسنه حسن وقبيحه قبيح، وقد ذكر الذهبي رحمة الله عليه أن القبح فيه أغلب. لكنه كلام، منه الحسن ومنه القبيح، والغالب في الشعراء ما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]. وقد سبق الكلام في ذلك إلا من استثناه الله عَزَّوَجَلَّ من أهل الإيمان.

ويقال: الشعر أعذبه أكذبه. هكذا اشتهر في أوساط العلماء، ولهذا ذكر بعض أهل العلم أن الشعراء الذين كانوا في الجاهلية ثم أسلموا أن شعرهم في الجاهلية كان أقوى من شعرهم في الإسلام؛ فإن الشعر أعذبه أكذبه، وإذا وُجِّهَ الشعرُ إلى الشر والكذب كان فيه قوة في البلاغة وقوة في الأداء، وإذا وُجِّهَ إلى الخير ضعف، وهذا باعتبار الأمر الغالب، ولهذا قيل فيه: أعذبه أكذبه، والمتأمل في أبيات الهجاء يجدها في شعر الشعراء أبيات قوية، فأعذبه أكذبه، ولهذا اتجه كثير من الشعراء إلى الهجاء والمبالغة في ذلك، ومن هؤلاء الحطيئة، فقد كان مشهورًا بالهجاء، فما ترك أحدًا إلا هجاه، حتى هجا أباه وأمه وأخاه وعمه وخاله، وفي الأخير هجا نفسه:

أَبَتْ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلُّمَا بِشَرٍّ فَلَا أَدْرِي لِمَنْ أَنَا قَائِلُهُ

أَرَى لِي وَجْهًا شَوَّهُ اللهُ خَلْقَهُ فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهٍ وَقُبِّحَ حَامِلُهُ

فرجع إلى نفسه وهجاها.

وهكذا هجا أمه فقال:

تَنَحَّـــي فَاقْعُـــدِي مِنِّـــي بَعِيـــدًا أَرَاحَ اللهُ مِنْـــــكِ الْعَـــــالَمِينَ
أَغْرِبَـــالًا إِذَا اسْـــتُودِعَتْ سِـــرًّا وَكَانُونَـــًا عَلَـــى الْمُتَحَـــدِّثِينَ
جَـــزَاكِ اللهُ شَـــرًّا مِـــنْ عَجُـــوزٍ وَلَقَّـــاكِ الْعُقُـــوقَ مِـــنَ الْبَنِـــينَ

فهجا أمه وأباه وأخاه وعمه وخاله وهجا نفسه، حتى هم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقطع لسانه، وشفعوا فيه وحبسه، ثم جاء بأبيات استعطف بها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخرجه من السجن وتعاهد ألا يهجو أحدًا. فهذا شأن الشعراء، يتجهون إلى الهجو والمغالاة في ذلك، ويتكلمون بالكلام الباطل. فالشعر أعذبه أكذبه.

وذكر الجاحظ عن نفسه أنه كان سائرًا في طريق، فشاهد رجلاً قصير القامة، عظيم البطن، طويل اللحية، يسقي شعره وبيده مشط، ويسرح شقه، فرآه فازدراه، وظن أنه أحمق، حيث وجد فيه بعض صفات الأحمق. فقال له: يا هذا، قد قلت فيك شعرًا. فقال له ذلك الرجل: هات. فقال:

كَأَنَّـــكَ صَـــفْوَةٌ فِـــي أَصْـــلِ حَـــشٍّ أَصَـــابَ الْحَـــشَّ طَـــشٌّ بَعْـــدَ رَشِّ

والصفوة: طائر صغير في أصل حش -أي في أصل بستان- والحش يطلق على البستان ويطلق على موضع قضاء الحاجة، أصاب الحش - ذلك البستان - طش بعد رش.

والطش هو المطر الخفيف كالرذاذ، والرش أيضًا المطر الخفيف لكنه أشد من ذلك. فقال له: قد أجبتك عما قلت. فقال: هات. فقال:

كَأَنَّـــكَ كُنْـــدُلٌ فِـــي ذَنَـــبِ كَـــبْشٍ يُدَلْـــدِلُ هَكَـــذَا وَالْكَـــبْشُ يَمْشِـــي

والكندل هو: اللبان، فاستحي من نفسه، وتمنى أن لم يكن هجاه، فالشعراء ميدانهم الهجو والكذب والمغالاة، والكلام الباطل. حتى ذكر الحافظ ابن كثير رحمة الله عليه: بأنك تقرأ القصيدة الطويلة من قصائد أهل الجاهلية فإذا بها هذر، فهي بليغة في العبارات والكلام، لكنها هذر، ليس فيها شيء نافع. فأغلبها هذر، يريد الشاعر أن يظهر فصاحته وحسن أدائه واستعماله للبلاغة في الكلام.

وإذا جئت إلى الشيء النافع منها فلا تجده وإنَّما هي هذر. وأما كلام الله عَزَّوَجَلَّ فهو نافع من أوله إلى آخره، فيه الهداية وفيه الخير وفيه النور، فهو يهدي للتي هي أقوم، فهذا هو حال الشعراء إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد تكلم الحافظ الذهبي رحمة الله عليه في "زغل العلم" على علم الشعر، وبين أن الشعراء عدة أقسام، قال: منهم المحسن كحسان، ومنهم المقتصد كابن المبارك، ومنهم الظالم كالمتنبي، ومنهم الأحمق السفيه كابن الحجاج – وهو الحسين بن الحجاج – ومنهم الكافر كذوي الإلحاد. فاختر في أي واد من هذه الأودية تسلك – أو كما قال رحمة الله عليه –.

فإذا استعمل الشعر في مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، وفي الدفاع عن الإسلام، فهذا خير، كشعراء الرسول عليه والسلام. وإذا استعمل في تقريب العلوم، وفي نظم المنظومات العلمية لتيسير العلوم، فهذا خير وبركة. وأمَّا إن استعمل في الشر فهو شر. فهو كلام، حسنه حسن وقبيحه قبيح، وجاء في الأدب المفرد وعند ابن ماجه من حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ جُرْمًا إِنْسَانٌ شَاعِرٌ يَهْجُو الْقَبِيلَةَ مِنْ أَسْرِهَا، وَرَجُلٌ تَنَفَّى مِنْ أَبِيهِ**».

فهذا أعظم الناس جرمًا: رجل شاعر يهجو القبيلة بأسرها، فيظلم ويتعدى على البريء، ويهجو جميع القبيلة، فهو من أعظم الناس جرمًا.

قال: (**فَهُوَ عُنْوَانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا...أَحْسَنَ الشِّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَذَلْ**) أي إذا لم يمتهن. فالشعر حسن، أما إذا أمتهن بالكذب، والغلو في الناس، وطلب الدنيا، كحال كثير من الشعراء، فقد كانوا ينظمون الأشعار للملوك والأمراء من أجل المال، فيمدحون ويغالون في المدح، ويريدون حظًا من الدنيا. وقد قيل للحطيئة: اترك الشعر. قال: ما أستطيع، هذا قوت عيالي. كيف اترك الشعر؟ فكانوا يقتاتون به.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٧) مَاتَ أهلُ الْفَضلِ لم يَبقَ سِوى ❁ مُقرفٍ أَوْ مَنْ عَلَى الأَصْلِ اتَّكَلْ

الشرح:

الناظم رحمة الله عليه ها هنا يتكلم على زمنه، فيقول: (**مَاتَ أهلُ الْفَضلِ**) وما ذكره رحمة الله عليه فيه شيء من المبالغة؛ فإن الخير ما زال موجودًا إلى قرب قيام الساعة، ولا تزال طائفة على الحق ظاهرين، وما زال الفضلاء والعلماء في كل زمن، وإنما يذهب الصالحون بالكلية عند قرب قيام الساعة، كما جاء في البخاري من حديث مِرْدَاسٍ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ أَسْلَافًا، وَيُقْبَضُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، حَتَّى يَبْقَى حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ، لَا يُبَالِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهِمْ**».

وهذا يكون في آخر الزمان، وأولئك هم الذين تقوم عليهم الساعة؛ فإن الساعة تقوم على شرار الخلق. فالصالحون لا يذهبون مرة واحدة قبل قيام الساعة بقرون متطاولة، وإنما يحصل نقص في الصالحين شيئًا فشيئًا، وكلما قربت الساعة كثر النقص، حتى ينشئ الله عَزَّوَجَلَّ ريحًا تأخذ أرواح المؤمنين، ويبقى شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة. فما ذكره ابن الوردي فيه شيء من المبالغة.

قال: (**لم يبقَ سِوَى مُقْرِفٍ**): والمقرف: المراد به الغير أصيل؛ فإن المقرف من الخيل هو الهجين، والهجين قيل: أبوه برذون وأمه عربية، وقيل: العكس.

فالمقرف من الخيل: الهجين، يعني ماله أصل، فأراد أن أهل الفضل قد ماتوا، ولم يبق إلا من هو مقرف، أي ليس له أصل شريف.

(**أَوْ مَنْ عَلَى الْأَصْلِ اتَّكَلْ**) يعني: أنَّ أباءه شرفاء، فله أصل شريف، لكنه لم يعمل بعملهم، ولم يسر على سيرهم، وإنما يفتخر بإبائه وأجداده فيقول: كان آبائي كذا، وأجدادي كانوا كذا وكذا، ويذكر مناقبهم وفضلهم وشرفهم، وهو لم يسر بسيرهم. وقد قال الشاعر في هؤلاء:

إِنِ افْتَخَرْتَ بِآبَاءٍ لَهُمْ شَرَفٌ قُلْنَا صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

فبين رحمة الله عليه أن الناس في عصره أحد رجلين: إما من له أصل شريف لكنه لم يسر بسير أولئك الأصول الشرفاء، فآباؤه علماء فضلاء، لكنه متكل على شرف الأصل من غير عمل، ومنهم من ليس بشريف ولا له أصل شريف، وهو المقرف. فهؤلاء الذين في زمنه.

(أَوْ مَنْ عَلَى الأَصْلِ اتَّكَلْ) أي: له أصل شريف لكنه اتكل على أصله، ولم يعمل بعمل الآباء والأجداد من أهل العلم والفضل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٨) أَنَا لاَ أَخْتَارُ تَقبِيلَ يدٍ ❁ قَطْعُهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلكَ القُبَلْ

الشرح:

نزه نفسه رحمة الله عليه من تقبيل أيدي أصحاب الدنيا، من أصحاب المال أو الجاه. فلا يختر ذلك لنفسه لما في ذلك من المهانة والدناءة.

وقد زجر العلماء من هذا وحذروا منه. وإنما أجاز العلماء تقبيل أهل العلم والفضل، وما كان من قبيل التدين لا من قبيل الدنيا. وقد ألفوا في ذلك المؤلفات، فابن الأعرابي ألف مصنفًا وهو "القبل والمعانقة والمصافحة"، ذكر جملة من الآثار والأحاديث في كتابه. وهكذا ابن المقرئ ألف "الرخصة في تقبيل اليد"، وذكر جملة من الأحاديث والآثار. وأكثر ما ذكره مما لا يثبت، فأورد جملة من الأحاديث الضعيفة وجملة من الآثار الضعاف.

وهناك من الآثار آثار ثابتة، كتقبيل عبد الرحمن بن رزين ليد سلمة بن الأكوع، وهذا ثابت بإسناد حسن، وقد رواه البخاري في الأدب المفرد.

وهكذا تقبيل ابن عيينة ليد حسين الجعفي، فهذا رواه ابن المقرئ في الرخصة في تقبيل اليد، والإسناد في ذلك حسن. وهكذا تقبيل النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لابنته فاطمة، وتقبيل فاطمة لرسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كما جاء عند أبي داود من حديث عائشة، وهو حديث حسن، فكان إذا دخل عليها قبلها وأجلسها في

مجلسه، وهي تفعل معه ذلك. فهذا مما جاءت به السنة عن رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وما جاء أن فاطمة كانت تقبل النبي عليه في فمه وفي عينه، فهذا لم يثبت.

وهكذا ما جاء أنَّ خالد بن الوليد قبل أخته في فمها، فإن هذا لا يثبت.

وهكذا مما جاء تقبيل أبي نظرة العبدي لخد الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذا جاء في سنن أبي داود بإسناد صحيح، لكن لم يكن ذلك بعادة لهم، فهذه حصلت من أبي نظرة العبدي مع الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فجاءت بعض الآثار الثابتة عن السلف في التقبيل، وجاءت بعض الأحاديث الثابتة عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأكثر ما ورد في الباب من الأحاديث أو الآثار فإنه لا يثبت.

فأجاز ذلك العلماء –أو كثير من أهل العلم– فأجازوا ذلك من باب التعبد والتدين، لا أن يفعل ذلك مع أهل الدنيا من أجل الدنيا؛ فإن هذا هو المذموم.

فلا تفعل ذلك مع أهل الدنيا تلتمس شيئًا من شهواتها ومن ملذاتها، أو مع أصحاب الجاه تفعل هذا معهم تلتمس شيئًا من حظوظ الدنيا، فهذه دناءة في الخُلُق.

وذلك الرجل الذي تقبله من أهل الدنيا ربما يكون من الفاسقين، أو من المجرمين، أو من الظالمين، أو من الباغين، فكيف تكرمه بمثل هذا الفعل؟ فإن هذه من الدناءة والمهانة.

فقطع تلك اليد أولى من تقبيلها، فقطع تلك اليد أجمل من تلك القبل، أي أنها يدٌ مهينة وليست بكريمة.

وهكذا الأحاديث التي جاءت بتقبيل بعض الصحابة ليد رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولقدمه ولركبته، فإنها لا تثبت ولا تصح. وهذا الفعل مما لا يشرع؛ فتقبيل الركبة وتقبيل القدم فيه انحناء، والانحناء نوع من أنواع السجود، والسجود لا يكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ. ولهذا لا يشرع في حق الولد مع والده أن ينحني لتقبيل ركبته أو لتقبيل قدمه ، وهكذا لا يشرع ذلك مع والدته؛ فهذا نوع انحناء، والانحناء داخل في مسمى السجود. قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأن داوود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]. وكان ركوعه سجودًا، كما قال ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: فِي سَجْدَةِ ص: «سَجَدَهَا دَاوُدُ تَوْبَةً وَنَحْنُ نَسْجُدُهَا شُكْرًا» أخرجه النسائي.

فدل ذلك على أن الركوع هو مبدأ السجود، وكان سجود داود عليه الصلاة والسلام عن قيام، ومبدأ ذلك كان من الركوع، فلم يكن جالسًا وسجد عن جلوس، وإنما سجد عن قيام، والساجد عن القيام يبدأ سجوده إذا وصل إلى حد الركوع، فالركوع يدخل في مسمى السجود، والانحناء داخل في مسمى السجود. فهذا مما لا يشرع.

وإذا لم يحصل انحناء – كأن يكون والده مثلاً على شيء مرتفع – فلا يعتبر سجودًا لكن ينبغي أن يترك، ويغلق هذا الباب بالكلية، ويكتفى بما كانت تفعله فاطمة مع رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبما كان يفعله النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع ابنته. فليس هنالك من الآباء من هو أكرم من بنت رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ،

فالتقبيل يكون في الرأس ويكون في اليد، هذا الذي جرى عليه عمل من مضى. أما في الركب وفي الأقدام، فهذا ليس بحسن، وقد يؤدي إلى نوع من السجود، حتى لو اتقى الإنسان ذلك فليس هذا بحسن، ويكتفى بالأمر المشروع في ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٩) إِنْ جَزتْني عَنْ مَديحِي صِرتُ في ❁ رقِّهـــا أَوْ لاَ فَيكفِينـــي الخَجَـــلْ

الشرح:

(**إِنْ جَزْتَنِي عَنْ مَدِيحِي**) أي: تلك اليد التي قبلتها ومدحتها، والمراد بذلك صاحبها، (**صِرتُ في... رقها**)، أي صرت عبدًا لها. فإن الشخص يصير رقيقًا لمن أحسن إليه، وكما يقال: الإحسان يقطع اللسان، ويستعبد الشخص أي يجعله رقيقًا. فإذا أعطاك ذلك الذي قمت بمدحه من أهل الدنيا، أعطاك شيئًا وجازاك على مديحك وعلى تقبيلك ليده، أعطاك شيئًا من الدنيا، فقد استرقك بهذه المنة وذلك العطاء. وكما قيل: استغني عمن شئت تكن نظيره – أي أنت وهو سواء، هو لا يحتاج إليك وأنت لا تحتاج إليه – واحتج لمن شئت تكن أسيره، وأفضل على من شئت تكن أميره. فالنعمة فيها نوع من الرق.

وفي صحيح البخاري: في صلح الحديبية، في قصة عروة بن مسعود مع الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، حين قَالَ له أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ عَنْهُ: امْصُصْ بَظْرَ اللَّاتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟ فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلَا يَدٌ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأن الصديق: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ❁ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ❁ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل:

١٩-٢١]. فكان كثير الإحسان للناس، وليس لأحد عليه نعمة تجزى. وأمَّا النعمة التي لا تجزى – فلا يستطيع أن يجزيها – فإنَّ عليه نعمة كنعمة الهداية التي سببها رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإن الهداية التي حصلت له بسبب رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نعمة لا تجزى، فلا يستطيع أن يجزيها. وأمَّا نعم الدنيا التي يمكن أن تجزى، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ فيه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ [الليل: ١٩]. فالنعم تسترق الشخص.

فلهذا يقول: (**أَوْ لَا فَيَكْفِينِي الْخَجَلْ**) وإن لم أنل شيئًا منه – فمدحته وأثنيت عليه وقبلت يده، وما أعطاني شيئًا – فهنا يكفيه ما ناله من الخجل مما حصل له من إهانة نفسه له.

فإن أعطي شيئًا فإنه يصير رقيقًا لمن مَنَّ عليه، وإن منعه نال الخجل، فأهان نفسه ولم ينل شيئًا. وينبغي للإنسان أن يرفع نفسه عن هذه الأمور.

ورحم الله الجرجاني حين قال:

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا
وَمَا كُلَّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي ... وَلَا كُلَّ مَنْ لَاقَيْتُ أَرْضَاهُ مُنْعِمَا
إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
انْهَهَا عَنْ بَعْضِ مَا لَا يَشِينُهَا ... مَخَافَةَ أَقْوَالِ الْعِدَا فِيمَ أَوْ لِمَا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدُمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذًا فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا

وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْعِلْـمِ صَـانُوهُ صَـانَهُمْ ... وَلَـوْ عَظَّمُـوهُ فِـي النُّفُـوسِ لَعُظِّمَـا
وَلَكِـــنْ أَهَـــانُوهُ فَهَـــانَ وَدَنَّسُـــوا ... مُحَيَّـاهُ بِالْأَطْمَـاعِ حَتَّـى تَجَهَّمَـا

فإذا جاء مطمع من مطامع الدنيا، صيَّر العلم سلَّمًا لنيل ذلك المطمع من مطامع الدنيا؛ لأنَّ الإنعام كالرق، فكيف تسترق نفسك لشخص دنيء من أهل الدنيا، وربما يكون من الفساق ومن البعيدين ومن الغافلين، ويسترقك بشيء من الدنيا؟

وما كل بـــرق لاح لـــي يستفزني ... ولا كل مـــن لاقـــيت أرضـاه منعما
إِذَا قِيـلَ هَـذَا مَنْهَـلٌ قُلْـت قَـدْ أَرَى ... وَلَكِـنَّ نَفْـسَ الْحُـرِّ تَحْتَمِـلُ الظَّمَـا

فيصبر على الظمأ إعزازًا لنفسه، وإن وجد الماء.

انْهَهَـا عَـنْ بَعْـضِ مَـا لَا يَشِـينُهَا ... مَخَافَـةَ أَقْـوَالِ الْعِـدَا فِـيمَ أَوْ لِمَـا

فيجبر نفسه عن بعض الأشياء التي ما فيها شين ولا عيب، لكن قال: مخافة أقوال العداء فيما أو لما؛ مخافة كلام المتكلمين من أعدائه، حيث يقولون: لم فعل كذا؟ وفيما فعل كذا؟ فهذه هي كرامة النفس.

وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْعِلْـمِ صَـانُوهُ صَـانَهُمْ ... وَلَـوْ عَظَّمُـوهُ فِـي النُّفُـوسِ لَعُظِّمَـا
وَلَكِـــنْ أَهَـــانُوهُ فَهَـــانَ وَدَنَّسُـــوا ... مُحَيَّـاهُ بِالْأَطْمَـاعِ حَتَّـى تَجَهَّمَـا

لما أهانوا العلم، صار العلم هينًا عند الناس، ودنسوه – أي دنسوا وجهه، والمحيا بمعنى الوجه حتى تجهم، أي صار عبوسًا قبيح المنظر.

فمن كان عنده علم فليكرم علمه؛ فالعلم شريف، وأهل العلم شرفاء، والعلم رفيع، وأهل العلم قد رفعهم الله عَزَّوَجَلَّ به: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣٠) أَعذَبُ الأَلْفَاظِ قَولي لَكَ: خُذْ ❁ وَأمَرُّ اللفظِ نُطقي بِلَعَلّْ

الشرح:

(**أَعذَبُ الأَلْفَاظِ قَولِي لَكَ: خُذْ**) ابن الوردي رحمة الله عليه يتكلم ها هنا عن نفسه، وأنَّ أعذب الألفاظ هي قوله للسائل: خذ.

وقد جاء في الصحيحين: من حديث أبي هريرة، ومن حديث ابن عمر، ومن حديث حكيم بن حزام رضي الله عن الجميع، قال رسول الله ﷺ: «**الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى**». فاليد العليا خير من اليد السفلى، واليد السفلى يد الآخذ، فإذن يد المعطي خير من يد الآخذ، وهذا هو الجود والكرم؛ أن يكون الشخص كثير العطاء.

(**وَأَمَرُ اللَّفْظِ نُطْقِي بِلَعَل**)، يشير إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]. فهذا أَمَرُّ اللفظ عنده ألا يوجد عنده العطاء، فيقول للسائل: لعل الله أن يرزقنا فنعطيك، ولعل الله عَزَّوَجَلَّ أن يمن علينا فنقضي حاجتك. فهذا أَمَرُّ اللفظ عنده: وهو أن يذكر المعاذير للسائل إذا لم يوجد عنده شيء يعطيه إياه.

فإن كان عندك العطاء، ووسع الله عَزَّوَجَلَّ عليك بالرزق، فالعطاء أحسن وأكمل، وقد يجب في بعض الصور. وإن لم يكن عندك شيء، وأنت ترجو أن يفتح الله عَزَّوَجَلَّ عليك، فخاطب السائل بالخطاب الحسن، وهذا إذا كنت ترجو شيئًا من الخير والرزق، فخاطب السائل بالخطاب الحسن وقل له: لعل الله أن يرزقنا كذا

وكذا فنعطيك، ونحو ذلك من الألفاظ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

وكان هذا من أخلاق النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقد جاء في البخاري من حديث جابر بن عبد الله قال: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لَا». فكان هذا من جوده ومن كرمه.

مَا قَالَ لاَ قَطُّ إِلاَّ فِي تَشَهُّدِهِ ... لَوْلاَ التَّشَهُّدُ كَانَتْ لاَؤُهُ نَعَمُ

ولما حج هشام بن عبد الملك في أيام أبيه، طاف بالبيت، وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه، فلم يقدر على ذلك لكثرة الزحام، فنصب له كرسي وجلس عليه ينظر إلى الناس، ومعه جماعة من أعيان الشام. فبينما هو كذلك إذ أقبل الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فطاف بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلم الحجر، فقال رجل من أهل الشام لهشام: من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟

فقال هشام: لا أعرفه –مخافة أن يرغب فيه أهل الشام– وكان الفرزدق حاضرًا، فقال: أنا أعرفه، ثم اندفع فأنشد هذه القصيدة التي أغضبت هشامًا، فأمر بحبسه بين مكة والمدينة:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
ينمى إلى ذروة العز التي قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

يغضي حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم
بكفه خيزران ريحها عبق ... من كف أروع في عرنينه شمم
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت عناصرها والخيم والشيم
ينجاب نور الهدى من نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها الظُلَم
حمال أثقال أقوام إذا فدحوا ... حلو الشمائل تحلو عنده نعم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
مَا قَالَ لاَ قَطُّ إِلاَّ فِي تَشَهُّدِهِ ... لَوْلاَ التَّشَهُّدُ كَانَتْ لاَؤُهُ نَعَمُ
من جده دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت له الأمم
عم البرية بالإحسان فانقشعت ... عنها الغواية والإملاق والظلم
كلتا يديه غياث عم نفعهما ... يستو كفان ولا يعروهما العدم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره ... يزينه اثنان: حسن الحلم والكرم
لا يخلف الوعد ميمون نقيبته ... رحب الفناء أريب حين يعتزم
من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم

وأثنى عليه بأبيات طويلة حسنة جميلة، ومن جملة ما أثنى به ذلك البيت:

مَا قَالَ لاَ قَطُّ إِلاَّ فِي تَشَهُّدِهِ ... لَوْلاَ التَّشَهُّدُ كَانَتْ لاَؤُهُ نَعَمُ

وأحق من يوصف بذلك رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فكان هذا خلقه: «**مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لَا**».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣١) مُلكُ كسرى عنهُ تُغني كِسرةٌ ❁ وعنِ البحرِ اجتزاءٌ بالوَشلْ

الشرح:

وفي هذا البيت يدعو ابن الوردي رحمة الله عليه إلى القناعة؛ فإن الغنى غنى النفس، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ». فهذا هو الغني في الحقيقة: من قنعه الله بما أتاه. وفي مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ».

فهذا هو الغنى، ومن كان عنده المال الكثير والدنيا الواسعة والفقر في قلبه فهو الفقير، ومن كان عنده الشيء اليسير والغنى في قلبه فهذا هو الغني في الحقيقة؛ فالغنى غنى النفس. وفي الصحيحين من حديث أنس، وجاء من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ»، فمن ليس عنده غنىً في نفسه، كلما نال شيئًا من الدنيا ازداد فقره وعظمت حاجته، فيزداد مالًا ويزداد فقرًا، ولا يمتلئ إلَّا بالتراب، فإذا صار من أهل الموتى هنا يقنع ويعلم أنه كان في غرور، وأنه ضيع نفسه فيما لا ينتفع به. فالغنى غنى النفس، ومن رزقه الله عَزَّوَجَلَّ القناعة فإنه ينظر إلى الدنيا بما ذكره ابن الوردي رحمة الله عليه.

(**ملك كسرى عنه تغني كسرة**): إن رزقك الله عَزَّوَجَلَّ بكسرة من الخبز شبعت بها، فيغنيك ذلك عن ملك كسرى؛ فإن الشخص وإن توسع في الدنيا والمال فإنَّه لن يأكل فوق ما يقدر عليه، فما يستطيع أن يأكل أكل مئة أو أكل ألف، وليس الشأن أنَّه كلما ازداد مالًا ازدادت نفسه للأكل، وإنما يجمع المال لغيره، وليس له من المال الذي ينتفع به إلَّا الشيء اليسير، وبقية المال يتركه للورثة من بعده، فهذا هو حال من جمع المال وأكثر من ذلك، وعن مطرف، عن أبيه، قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، قال: «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟**».

فهذا الذي له من ماله، ومهما كثر ماله، فليس له إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وبقية المال إنما يجمعه للورثة، فلا ينتفع الإنسان بماله إلا بالشيء اليسير، فإذا كانت عندك كسرة من الخبز سددت بها جوعك، أغناك هذا عن ملك كسرى؛ فإن ملك كسرى ملك صوري، والمال الذي عنده وإن كثر لا ينتفع به، وإنَّما ينتفع به بمثل ما أنت منتفع به: فإذا جاءه الجوع سد جوعه بالأكل، فيسد جوعه كما تسد أنت جوعك. فذاك الملك الكثير والمال الكثير لا ينتفع به إلا بالشيء اليسير، كما أنت تنتفع به، فليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت.

فملك كسرى تغني عنه كسرة. وكما قال بعض من مضى: الفرق بين الغني والفقير في هو الحال فقط، فأما الماضي والمستقبل فهما سواء؛ فإن ما مضى فلا يجد الغني شهوته، وهكذا لا يجد الفقير ألم الجوع الماضي، فذاك منسي وذاك

منسي، فما مضى الغني والفقير فيه سواء، ذاك زال والآخر زال. وما سيأتي في المستقبل فالغني والفقير على مخاطرة فيهما، وهما في ذلك على حد سواء؛ والمستقبل لم يأت بعد، وقد يدركه الغني والفقير، وقد لا يدركه لا الغني ولا الفقير، والمستقبل أيضًا يستوي فيه الغني والفقير من وجه آخر وهو أنَّ المستقبل لا يجد الغني لذته لأنه لم يأت بعد، ولا يجد الفقير ألمه لأن المستقبل لم يأته بعد، فهما على حد سواء في ذلك. فما بقت إلا الساعة الحالة فقط، وفيها يحصل الفرق بين الغني والفقير – أي باعتبار الشبع والجوع – وهذا زمن يسير.

وإذا كان العبد متقيًا لله عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يضره ما فاته من الدنيا، فإذا كان متقيًا لله عَزَّوَجَلَّ وصالحًا، فالدنيا كما يقال: صبر ساعة، وينتقل العبد إلى رضوان الله عَزَّوَجَلَّ.

وربما كان الفقير في الدنيا أصح من الغني؛ فإن التوسع في باب الشهوات والملذات مفسد للدين والبدن، وكم من أمراض وأوجاع وأوبئة وأسقام بسبب التوسع في الشهوات، ولهذا تجدون أصح الناس هم: الفقراء؛ وذلك لعدم توسعهم في باب المطعم والمشرب، ولكثرة حركتهم – وربما الواحد منهم ما يحتاج إلى مركوب أو لا يتيسر له المركوب – فيكثر من الحركة والمشي، ويأكل ما يحتاج إليه ولا يتوسع في باب الشهوات، فبدنه أصح من بدن الغني، والغني تكثر فيه الأمراض والأوجاع والأوبئة، وربما بعد ذلك منع من كثير من الملذات والشهوات، وصار يأكل أكلًا دون أكل الفقير، ربما يصير الفقير أرفع

أكلاً منه، وهو يأكل دون أكل الفقر، ويتمنى أن يساوي الفقير في مطعمه وفي مشربه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣٢) مُلكُ كِسرى تُغني عَنهُ كِسْرةٌ ❁ وَعنِ الْبحْرِ اجْتزاءٌ بالوَشلْ

الشرح:

فيغنيك عن البحر الكثير الوشل –وهو الماء القليل– **والمعنى**: إذا كان عندك الشيء الكثير من الدنيا، فإنَّ الشيء القليل منها يحصل به المقصود، والشيء الكثير الذي تجمعه فإنك لا تنتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة. فكلما جمعت من الدنيا غلظَّت على نفسك الحساب في الآخرة؛ فالمال تجمع منه الكثير وتنتفع منه باليسير وتحاسب منه على القليل والقنطير، فتنتفع بالشيء اليسير في المأكل والمشرب والملبس، فأنت تجمع منه الكثير وتنتفع منه بالشيء اليسير، ثم تحاسب على الكثير والقليل؛ فالحساب على كل شيء، فتنتفع بالشيء اليسير منه وتحاسب على الكثير والقليل.

فلهذا الذي ينشغل بالدنيا وحطامها إنما هو في غرور، إلا إذا كان منفقًا ماله في مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ فهذا ممن قدم لآخرته.

وأما أن يكون جموعًا منوعًا، فيخشى عليه من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ❁ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ❁ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ❁ وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٥-١٨]، فهو: جموع منوع، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ❁ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: ١-٢].

لكن سكرت الشهوات تنسي العبد هذا الأمر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] أي في الأموال والأولاد ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢]، فهنا تحصل اليقظة: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢].

وعن أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ**»، فهذا هو الصاحب الوفي، فالعمل هو الصاحب الوفي، وأما الأهل فيرجعون، والمال يرجع إلى الورثة ويتقاسمونه فيما بينهم، والصاحب الوفي معك هو العمل الصالح، فكن وفياً معه في الدنيا؛ فإن هذا هو الصاحب الوفي الذي يبقى معك في قبرك وفي أرض المحشر إلى أن تدخل الجنة برضوان الله عَزَّوَجَلَّ وبمشيئته وفضله وكرمه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣٣) اَعتَبِر نحن قَسَمنَّا بَيَنهُمُ	تَلقَهُ حَقَا وبالحق نَزلْ

الشرح:

أي: تأمل وتفكر وخذ العبرة، من "نحن قسمنا بينهم" وهو يشير إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]. والمعنى: أن الذي قسم الأرزاق هو الله عَزَّوَجَلَّ، فلا تنافس أصحاب الدنيا على الدنيا فقد قسم الله الأرزاق بين العباد، ولله عَزَّوَجَلَّ في ذلك الحكمة البالغة، فجعل الأغنياء وجعل الفقراء، ومن أعطاه

العطاء الكثير لا يدل على كرامته عنده، ومن ضيق عليه في رزقه فلا يدل على مهانته، بل لله عَزَّوَجَلَّ في ذلك الحكمة البالغة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾، وقال: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

قال الله: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧]. فليس هذا بميزان صحيح؛ الدنيا يعطيها الله عَزَّوَجَلَّ من أحب ومن لا يحب، وأما الآخرة فإنما يعطيها الله عَزَّوَجَلَّ من يحب. فالميزان الآخرة، وأما الدنيا فليست ميزانًا، وقد أعطي الكفار فيها أكثر من أهل الإيمان. قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**». رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]. أي: لجعل لهم السقف من الذهب، والسلالم من الذهب، والأبواب من الذهب، والأسرة من الذهب، لكنه لم يفعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهم ذلك رحمة منه بالمؤمنين؛ حتى لا يجتمع الناس على الكفر ويصيروا أمة واحدة على الكفر؛ فإن الدنيا فتنة.

ففتح الله على الكافرين من الدنيا الشيء الكثير، وهذا من قبيل الاستدراج لهم، ومن قبيل العذاب؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعذبهم بهذه الأموال في الحياة الدنيا.

(**اَعتَبِر نحَن قَسَمنَّا بَيَنَهُمُ... تَلقَهُ حَقًا وبالحق نَزَلْ**) فإذا كان الأمر كذلك، فلا تحسد شخصًا على دنيا، ولا تنافس غيرك على الدنيا، وإنما المنافسة على الآخرة، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]،

وقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

فلا تتطلب ما ليس لك، ولا تشغل نفسك بما في يد غيرك، الكل مقسوم، فقد قسم الله عَزَّوَجَلَّ الرزق للغني والفقير، فالله هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فالأمر له وحده لا شريك له، ولله عَزَّوَجَلَّ في ذلك الحكمة العظيمة.

وذلك أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لو جعل الناس كلهم أغنياء لفسدت أحوال الناس، ولا تستقيم أحوالهم بذلك؛ فإذا أراد الشخص بعد ذلك أن يحفر بئرًا لن يتمكن من ذلك، فمن ذا الذي يطاوعه على حفر البئر؟ وإذا أراد أن يبني بيتًا، فمن ذا الذي يطاوعه على البيت؟ والكل أغنياء ولا حاجة لهم إلى ماله. وهكذاالقول في بقية الأمور، فتفسد أحوال الناس إذا جعل الله عَزَّوَجَلَّ الجميع أغنياء، فلهذا فاضل الله عَزَّوَجَلَّ بين الناس، فجعل الغني والفقير، والحر والعبد، والراعي والرعية، والعالم والجاهل، ففاوت الله عَزَّوَجَلَّ بين الناس وما جعلهم على حد سواء، وبهذا تستقيم أمور الناس: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، والمراد بذلك

التسخير، وليس المراد بذلك الاستهزاء – فَيُسَّخِر الغني الفقير بماله – فالفقير يحتاج إلى المال فيقوم بالعمل، والغني يحتاج إلى العمل فيبذل المال، وتصلح أحوال الناس بهذا الأمر وبهذه المفاضلة، فلله عَزَّوَجَلَّ في ذلك الحكمة البالغة، فأقنع بما قسم الله لك، وارض بذلك، فإنك بذلك تكون أغنى الناس، فعلى العبد أن يعتبر بهذه الآية.

فهذا الأمر حق، وبه تتم مصالح الناس، وهذا الأمر نزل من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهو حق، ولا تقوم مصالح الناس إلا بذلك، وما ذكر المؤلف هاهنا من قبيل الاقتباس من آيات القرآن، والاقتباس من آيات القرآن في الشعر: أكثر العلماء على جوازه، وكرهه بعض العلماء – فكرهه العلامة النووي، وكرهه أيضًا السبكي – باعتبار أن الله عَزَّوَجَلَّ نزه القرآن عن الشعر، وقد افترى المفترون وقالوا: القرآن شعر، وقالوا: سحر، وقالوا: أساطير الأولين، فنزه الله عَزَّوَجَلَّ كتابه عن ذلك، فكرهوا إدخال الآيات في الشعر من أجل هذا الأمر، وكثير من أهل العلم أجازوا ذلك ولم يروا في ذلك أي محذور شرعي، كما صنع ابن الوردي ها هنا: (اَعتَبِر نحَن قَسَمنَّا بَيَنَهُمُ... تَلقَهُ حَقًا وبالحق نَزْلْ).

وقال بعضهم:

يا من عدا ثم اعتدى ثم اقترف ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف

أبشر بقول الله في آياته إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

وكل هذا من قبيل الاقتباس: اقتباس بعض آيات القرآن وإدخال ذلك في الشعر. وقال بعض الشعراء:

أقـــام الضيـــوف علـــى بيتـــه وصـــار يـــريهم نجـــوم الســـماء
وقـــد فتـــت الجـــوع أكبـــادهم وإن يســـتغيثوا يغـــاثوا بمـــاء

قال: أقام الضيوف على سطحه – وهذا هو الكرم المقلوب –فأقام الضيوف على سطحه، وبات يريهم نجوم السماء: أي: انظروا إلى هذه النجوم، فما أحسن هذه النجوم!

فكل هذا من قبيل الاقتباس، وما كان في النثر يقال له الأمثال، وقد يقال له الاقتباس. وأما في النثر فالعلماء كالمتفقين على جوازه، وإنما حصل شيء من النزاع والكراهة في قضية الشعر، وأما النثر فالعلماء –كما عرفنا– كالمتفقين على جواز ذلك. وقد ألف ذلك السيوطي رحمة الله عليه كتابًا سماه: "رفع الباس وكسب الالتباس في ضرب المثل في القرآن والاقتباس"، وهو ضمن الحاوي للسيوطي، جمع جمعًا حسنًا طيبًا، وذكر أدلة كثيرة في حل ذلك ومشروعيته.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣٤) لَيْسَ مَا يَحْوِي الْفَتَى مِنْ عَزْمِه ❁ لا وَلا مَا فَاتَ يَوْمًا بِالْكَسَلْ

الشرح:

والمعنى: أن الأمر بيد الله عَزَّوَجَلَّ، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي قسم الأرزاق: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٦٢]، فمن وسع الله عَزَّوَجَلَّ عليه في الرزق، ليس ذلك من اجتهاده في طلب الرزق، ولا من حنكته، وإنما هذا قضاء الله وقدره، ومن فاته شيء من

الرزق، فليس السبب في ذلك هو الكسل؛ فإن العبد لا ينال إلا المكتوب. فمهما اجتهد الشخص على أن ينال فلسًا واحدًا لم يكتب له، فلن يستطيع له، ومتى أراد الشخص أن يفر من فلس واحد قد كتب له، فلن يستطيع أن يفر منه، فلا مفر من الرزق، ولا مفر من الموت.

قال: (**لَيْسَ مَا يَحْوِي الفَتَى مِنْ عَزْمِهِ**) لا بجده واجتهاده، ولا بحنكته. وإنما ظَنَّ خلاف ذلك الكافرون، كما قال الله عزَّ عن قارون أنه قال لقومه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِى﴾ [القصص:٧٨]، فأضاف ذلك الرزق إلى نفسه، وقد فتح الله عَزَّوَجَلَّ عليه من الكنوز الشيء الكثير: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦]، فهذه هي المفاتيح، فكيف بالخزائن؟! وكيف بما في الخزائن من الأموال؟!

وقال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الزمر:٤٩]. قال الله: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(**لَا وَلَا مَا فَاتَ يَوْمًا بِالكَسَلْ**) وما فاتك من الرزق فهو بقضاء الله وقدره، وما جاءك فهو بقضاء الله وقدره. قال بعضهم:

فَكُنْ ذَا اقْتِصَادٍ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ... فَأَحْسَنُ أَحْوَالِ الفَتَى حُسْنُ قَصْدِهِ

وَمَا يَحْرِمُ الإِنْسَانَ رِزْقًا لِعَجْزِهِ ... كَمَا لَا يُنَالُ الرِّزْقُ يَوْمًا بِكَدِّهِ

حُظُوظُ الفَتَى مِنْ شَقْوَةٍ وَسَعَادَةٍ ... جَرَتْ بِقَضَاءٍ لَا سَبِيلَ لِرَدِّهِ

فالأمر لله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. وليس المعنى أن الشخص يترك أسباب الطلب وأسباب الرزق، فطلب أسباب الرزق من الأمور المشروعة.

لكن لا تعتقد أن ما نلته بجدك واجتهادك، وأن ما فاتك بتقصيرك؛ فالرزق مكتوب محتوم، وإنما أنت تسعى في الأسباب، فالأخذ بالأسباب سنة شرعية وسنة قدرية: سنة شرعية لأنَّ ذلك مطلوب شرعًا، وسنة قدرية فإن الله عَزَّوَجَلَّ أجرى الكون على الأسباب، فخذ بالأسباب وتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ، وأعلم أن الرزق بيد الله عَزَّوَجَلَّ، فليس مقصود الناظم أن الإنسان يترك الأسباب الشرعية ويقول: "المكتوب سوف يأتيني"، هذا كلام فاسد، ولا يقول هذا عالم من العلماء، والناظم لا يريد هذا المعنى، وإنما يريد المعنى الذي ذكرناه: أن الكل مكتوب، والإنسان مهما اجتهد وأراد أن ينال ما يناله غيره، كأن ينظر إلى أصحاب الثروات والأموال الطائلة فيقول: "سوف اجتهد حتى أكون مثلهم"، وهو لم يكتب له ذلك فلن يستطيع ذلك، فالغنى والفقر بيد الله عَزَّوَجَلَّ، فليتوكل العبد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليأخذ بالأسباب المباحة، وليعتمد على ربه عَزَّوَجَلَّ، وليعتقد أن الرزق مكتوب، فلا يستطيع العبد أن يزيد شيئًا في رزقه، ولا ينقص شيئًا من رزقه.

قال: رَحِمَهُ ٱللَّهُ

٣٥) اطْـرَحِ الـدُّنيا فَمـنْ عَادَاتِهـا ❁ تَخفِـضُ العـاليْ وتُعلـي مَـنْ سَـفَلْ

الشرح:

(اطرح الدنيا) أي: ارمِ بها، (فمن عاداتها) أي: من أمورها المستمرة الغالبة: أنها تخفض من كان عاليًا، أي من كان رفيعًا بالعلم والإيمان والعمل الصالح ومكارم الأخلاق، وتعلي من سَفُل، أي: من كان بعيدًا عن العلم والعمل الصالح والأخلاق الحسنة، هذا هو شأن الدنيا لحقارتها. فقد على فيها فرعون، وصار ملكًا لأهل مصر، وهو القائل: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]، والقائل: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ❁ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ❁ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:٥١-٥٣].

فصار ملكًا على أهل مصر، له الأمر والنهي، ورفعت الدنيا قارون، وكان عنده ﴿مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦].

وهكذا ارتفع فيها النمرود، وارتفع فيها كثير من الكافرين، وملكوا الديار، وصارت لهم الصولة والجولة والأمر والنهي.

وفي هذه الأزمان، من تأمل إلى الكافرين وجد عندهم الدنيا، فقد بُسِطَتْ لهم الدنيا، وصارت لهم السيطرة على بلدان المسلمين وعلى غيرها.

فهذا شأن الدنيا، ولهذا فليست هي الميزان عند الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:٣٥]، هذه نظرية أهل الدنيا، والله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧]، وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]، ولم يقل: "أغناكم" أي بالمال. ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

فهذا حال الدنيا، فلذا ينبغي على العبد أن يقبل على الآخرة، ويأخذ من الدنيا ما يعينه على آخرته.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧٨) عَيشَةُ الرَّاغِبِ في تحَصِيلِها	عَيشَةُ الجَاهِلِ فِيهَا أَوْ أَقَلْ

الشرح:

(**عَيشَةُ الرَّاغِبِ**) وفي بعض النسخ: (**عِيشَةُ الجَاهِلِ**)، وفي بعضها: (**الجَاهِدِ**)، والأظهر هو (**الزَّاهِدِ**) لأنَّه هو يقابل: الراغب، فهناك من هو راغب في الدنيا، وهناك من هو زاهد عنها، فلا أن يصح أن يقال: "الجاهل" في مقابلة الراغب، وإنما يقال: "الزاهد".

فالرغبة شدة الحرص والطلب. فقال: (**عِيشَةُ الرَّاغِبِ فِي تَحْصِيلِهَا...عِيشَةُ الزَّاهِدِ فِيهَا أَوْ أَقَلْ**) فالحريص على الدنيا، وعلى جمعها، إن تأملت في حاله وفي

عيشته، تجده كالزاهد أو أقل، كما جاء في "المسند"، وعند ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»، فأي العيشين أحسن: عيشة الزاهد أم الراغب؟!

الجواب: عيشة الزاهد أحسن، فإن الزاهد في الدنيا يجعل الله عَزَّوَجَلَّ غناه في قلبه، فتكون له القناعة، والغنى، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»، وقال: «مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ، جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ»، فلا تتفرق به الدنيا، «وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»، فهو يبتعد عنها وهي تأتيه، ومن كان حريصًا على الدنيا، جعل الله عَزَّوَجَلَّ فقره بين عينيه، فكلما ازداد من الدنيا متاعًا ازداد فقرًا، فلا يجد الغنى في قلبه، ومع هذا، فإنَّه لا يأخذ من الدنيا إلا المكتوب الذي كتبه الله عَزَّوَجَلَّ له، فالمتأمل في عيشة الراغب والزاهد يجد أن عيشة الزاهد أفضل من عيشة الراغب.

والزهد في الدنيا ليس المراد به الفقر، فإن الزهد في القلب. فمن كثر ماله ولم يكن حريصًا على الدنيا، بل لا يبالي بها، فهو زاهد بشرط أن يكون قلبه متعلقًا بالآخرة.

فهذا زاهد وإن كثر ماله، ومن كان فقيرًا معدَمًا، وقلبه متعلق بالدنيا، فهل يقال فيه: "زاهد في الدنيا"؟

الجواب: لا يقال فيه زاهد في الدنيا، فالزهد في القلب، ولهذا يقال في سليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إنه زاهد في الدنيا، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ آتاه من الملك ما لم يؤتَ

أحدًا قبله ولا بعده، ومع هذا يقال فيه: زاهد في الدنيا؛ لأن الدنيا لم تدخل إلى قلبه، فهو زاهد فيها ومقبل على الآخرة، فالزهد حقيقته في القلب.

فلا يلزم من الزهد في الدنيا أن يكون الشخص معدَمًا، فكثير المال الحريص على الآخرة غير مبالي بالدنيا –جاءت أو ذهبت– هو زاهد فيها، وقليل المال المعدَم الذي ليس معه شيء من الدنيا، أو معه الشيء اليسير، وقلبه متعلق بالدنيا، فلا يقال فيه: زاهد في الدنيا، إذاً الزهد في القلب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣٦) كَمْ جَهولٍ بَاتَ فَيها مُكثراً ❁ وَعَليمٍ بَاتَ مِنها في عِلَلْ

الشرح:

(**كَمْ جَهولٍ بَاتَ فَيها مُكثراً**) أي: في الدنيا (**مكثرًا**)،أي: كثير المال، فهو جاهل، ومع هذا فإنَّ ماله كثير، (**وَعَليمٍ بَاتَ مِنها في عِلَلْ**) أي في عوائق وأمراض، أي: لم ينل ما ناله ذلك الجاهل، فالدنيا هذا حالها، فترى الجاهل عنده الأموال الكثيرة، وصاحب العلم عنده الشيء اليسير، فقد يكون الشخص ربما أمِّيًا لا يقرأ ولا يكتب، وعنده الأموال الطائلة الكثيرة، وهناك – كما يقال – أصحاب الشهادات العليا، ما عنده إلَّا شيء اليسير من المال، مع أنَّ عنده الدراسات العليا في أمور الدنيا، ومع هذا ما عنده من الدنيا الشيء اليسير.

وقد يكون أيضًا عنده العلم الشرعي، وعنده الشيء اليسير منها، وكما قال سفيان بن عيينة رحمة الله عليه: "مَنْ زِيدَ فِي عَقْلِهِ نُقِصَ مِن رِزْقِهِ".

وهذا باعتبار الأمر الغالب، وليس هي بقاعدة مستمرة، فالدنيا على العكس، وأما أمر الدين والآخرة فعكس الدنيا، فمن كان عاقلًا عالمًا ازداد خيرًا ورفعة في الآخرة. وأما الدنيا فهي على العكس من ذلك. قال: "مَنْ زِيدَ فِي عَقْلِهِ نُقِصَ مِن رِزْقِهِ". وقال بعضهم:

وَخَصْلَةٌ لَيْسَ فِيهَا مِنْ يُخَالِفُنِي ... الرِّزْقُ وَالْجَهْلُ مُقْرُونَانِ فِي قَرْنِ

أي: الرزق والجهل مقرونان في حبل واحد.

ويذكر في بعض دول الكافرين أن ميراثًا كثيرًا أُعطي لقطة، أو وكلبة! أمور عجيبة! فتصير القطة أو الكلبة من أثري الأثرياء: ويقال بعد ذلك: أثرى قطة في العالم، وأثرى كلبة في العالم، فقد يكون صاحب القطة عنده الأموال الطائلة، ويحب تلك القطة، فيكتب لها وصية، ويجعل لها جميع ما يملك، وبعد ذلك إذا مات صاحبها، ترى الخدم والحشم مع تلك القطة، والسيارات والعمارات والأرصدة في البنوك! ولا عَجَب من قوم أضلهم الله! ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣٧) كَمْ شجاعًا لم يَنلْ فيها المُنى ❁ وَجَبانٍ نَالَ غاياتِ الأَمَلْ

الشرح:

(**كَمْ شجاعاً لم يَنلْ فيها المُنى**) أي: لم ينل ما تمناه مع شجاعته وإقدامه، (**وَجَبانٍ نَالَ غاياتِ الأَمَلْ**) أي: نال ما يتمناه مع جبنه وإحجامه! فهذا حال الدنيا.

وكما قيل:

تَمُـوتُ الأُسْـدُ فِـي الغَابَـاتِ جُوعًـا ... وَلَحْـمُ الضَّـأْنِ تَأْكُلُـهُ الكِـلَابُ

وَعَبْـدٌ قَـدْ يَنَـامُ عَلَـى حَرِيـرٍ ... وَذُو نَسَـبٍ مَفَارِشُـهُ التُّـرَابُ

فهكذا هي الدنيا، وأما الدار الآخرة، فجعلها الله عَزَّوَجَلَّ للمتقين، وجعلها الله للمؤمنين، وجعلها الله للمحسنين، إذا كان الأمر كذلك:

٣٨) فَـاترِكِ الحِيْلَـةَ فِيهَـا وَاتَّكِـلْ	❁	إِنمـا الحِيْلَـةُ في تَـرْكِ الحِيَـلْ

الشرح:

فاترك الحيلة في جمع الدنيا وحطامها، ولا تحتل بأنواع الحيل للتوصل إلى جمع المال وإلى الثراء، فإن الدنيا لا تنال بعلم عالم، ولا بحرص حريص، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي قسَّم الدنيا، ولا ينال العبد منها إلا ما كُتب له، فمهما كان عالمًا وخبيرًا، فلن يستطع أن يكسب فلسًا واحدًا لم يكتب له، فالدنيا لا ينالها الشخص بحذاقته ولا بعلمه، فكم من جاهل نال الدنيا، وكم من عليم لم ينل منها إلا الشيء اليسير، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢]، وقال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، فالأمر راجع إلى مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، والأمر راجع إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. فإذا كان كذلك، فقال ابن الوردي رحمة الله عليه: (**فَاتْرُكِ الحِيلَةَ فِيهَا وَاتَّكِلْ**)، أي على ربك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فتوكل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الرزق.

وفي حديث عمر، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»، فالرزق بيد الله عَزَّوَجَلَّ، فاتكل على الله عَزَّوَجَلَّ، وخذ بالأسباب المباحة، كما قال عمر، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا».

وجاء عند ابن ماجه وعند غيره، وهو حديث حسن لغيره. قال: «اتقوا الله واجملوا في الطلب»، أي اطلبوا الطلب الجميل.

والطلب الجميل أن يتحرى الإنسان الحلال، ويبتعد عن الحرام، والمكتوب لابد أن يأتي، فعلى العبد أن يتقي ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويتوكل على الله، ويأخذ بالأسباب المباحة، فلا يتجه إلى الحرام من أجل أن يكثر رزقه؛ فالرزق هو ذلك الرزق الذي كتبه الله لك، وإنما تنال السيئات وتظلم نفسك، فمهما اتجهت إلى الحرام، فإنك لن ترزق إلا ما كتب لك، فاتقِ الله وأجمل في الطلب، أي اطلب الطلب الجميل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣٩) أَيُّ كَفٍّ لَمْ تَنَلْ مِمَّا تُفِدْ ❁ فَرَمَاهَا اللهُ مِنْهُ بِالشَّلَلْ

الشرح:

(أَيُّ كَفٍّ لَمْ تَنَلْ مِمَّا تُفِدْ) وفي بعض النسخ: "لَمْ تَنَلْ مِنْهَا المُنَى"، وهي أظهر من حيث المعنى: (أَيُّ كَفٍّ لَمْ تَنَلْ مِنْهَا المُنَى ...فَرَمَاهَا اللَّهُ مِنْهُ بِالشَّلَلْ)، فهي أظهر من حيث المعنى، فإن المراد بذلك أن من أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ العطايا، ومَنَّ

الله عليه بسعة الرزق، ثم بخل ولم ينفق مما آتاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رماه الله منه بالشلل. وهذا معنى صحيح، فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا». فهذه دعوة عليه بالتلف.

قال أهل العلم: قد يراد بذلك تلف المال الذي بخل الإنسان به، وقد يراد بذلك تلف النفس، وهنا دعا المؤلف بتلف الكف الذي لا تعطي مما أعطاها الله عَزَّوَجَلَّ، والشلل تلف في الكف وإبطال لها، فهذا كلام مستقيم في حق من أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ الدنيا، وفتح الله عليه فيها، وبسط الله عَزَّوَجَلَّ عليه في الرزق، ثم بخل بماله، وكما جاء في الحديث: «**اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا**». فيكون ما جاء في بعض النسخ أحسن مما ذكر هاهنا: (**أَيُّ كَفٍّ لَمْ تُفِدْ مِمَّا تُفِدْ ... فَرَمَاهَا اللَّهُ مِنْهُ بِالشَّلَلْ**). وأما على ما ذكر هاهنا: (**أَيُّ كَفٍّ لَمْ تَنَلْ مِنْهَا الْمُنَى ... فَرَمَاهَا اللَّهُ مِنْهُ بِالشَّلَلْ**)، فلا يظهر أن المعنى مستقيم؛ فإذا كانت الكف لا تنال منها المنى، فكيف تدعو عليها بالشلل لأنها امتنعت من إعطائك، فهذا لا يستقيم من حيث المعنى. لكن إذا قيل: (**أَيُّ كَفٍّ لَمْ تُفِدْ مِمَّا تُفِدْ = فَرَمَاهَا اللَّهُ مِنْهُ بِالشَّلَلْ**)، فهذه مستقيمة كما يدل عليه الحديث الذي ذكرناه؛ فإن الملك الآخر – كما علمنا – يقول: «**اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا**»، والشلل نوع من أنواع التلف.

ثم قال رحمة الله عليه:

٤٠) لاَ تَقُلْ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَداً ❁ إِنمَا أَصْلُ الفَتَى مَا قَدْ حَصَلْ

الشرح:

أي: لا تفتخر بأصلك، فإن أصلك وإن كان شريفًا، وأنت دنيء – باعتبار العمل والخلق – فإنك لا تنتفع بأصلك. وفي حديث أبي هريرة في صحيح مسلم، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»، فإنما ينظر الإنسان إلى عمله، ويكرم الإنسان أو يهان بعمله، لا بعمل آبائه وأجداده، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٤]، فالآباء والأجداد إن عملوا خيرًا فلأنفسهم، وإن أساءوا فعليها. والذرية لا ينالون أجرًا من أعمال آبائهم، ولا يتحملون وزرًا من سيئات آبائهم. ولا ينال العبد شرفًا بأصله فينتفع به، ويعلو به الدرجات في الجنة، أو ينجو به من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما يحاسب العبد على عمله: قال ﷺ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»، وقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا»، ونسبها أشرف نسب، فهي ابنة رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومع هذا بين النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه لا يغني عنها شيئًا.

(**لا تقل أصلي**)، فإن كنت دنيء الخلق والعمل، فلا ينالك الشرف باعتبار الأصل.

مَا يَنْفَعُ الأَصْلَ مِنْ هَاشِمٍ ... إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ مِنْ بَاهِلَةَ

فلا ينتفع الإنسان بأصله الشريف إذا كان دنيء الخلق.

لَعَمْرُكَ مَا الإِنْسَانُ إِلَّا بِدِينِهِ ... فَلَا تَتْرُكِ التَّقْوَى اتِّكَالًا عَلَى النَّسَبِ

فَقَـدْ رَفَـعَ الإِسْـلَامُ سَـلْمَانَ فَـارِسٍ وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ النَّسِيبَ أَبَا لَهَبِ

فالشرف إنما هو شرف الدين، "لعمرك ما الإنسان إلا بدينه"، فهذا هو الشرف الحقيقي: "فلا تترك التقوى اتكالًا على النسب".

فأبو لهب من بني هاشم، لكنه وإن كان أصله شريفًا فقد قال الله فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]، فما انتفع بأصله الشريف، وهو وضيع. وسلمان فارسي وأصله من العجم، فرفعه الله عَزَّوَجَلَّ بالإسلام. فالشرف إنما هو شرف الدين وشرف الإسلام. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]. فهذا هو الشرف في الحقيقة. والافتخار بالآباء والأجداد من أمور الجاهلية. كما في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال: "أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ". فهذا من أمور الجاهلية، ولا يجوز لمسلم أن يفتخر بآبائه وبأجداده. وقد جاء في حديث أبي هريرة، قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ**».

هكذا يقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «**أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ**» فأصلنا واحد من العرب والعجم، أصلنا من آدم، وإنما نتفاضل بالدين والعمل الصالح: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١]، ما قال: "يرفع الله من كان شريف النسب"، وإنما يرفع الله عَزَّوَجَلَّ

من آمن به وعمل صالحًا، ويرفع الله عَزَّوَجَلَّ من كان عالمًا عاملاً بعلمه، فالرفعة ينالها العبد بدينه وتقواه، بالعلم والعمل، ولا ينال الرفعة بالنسب.

قال: (**لَا تَقُلْ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَدًا**). يُقال: "لا أصل له ولا فصل"، أي لا أصل له بمعنى ليس بشريف النسب، ولا فصل له – قالوا الفصل: اللسان – أي ما عنده حسن بيان، فلا نسب شريف ولا لسان يفصل فيه بالقول. والشخص قد يرفع عند الناس بنسبه، وقد يرفع بلسانه، فهذا لا أصل له ولا فصل. وقيل المراد بقولهم "لا أصل له ولا فصل": لا والد ولا ولد. وهنا قال: (**لَا تَقُلْ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَدًا**)، أي لا تفتخر بالآباء والأجداد، ولا تفتخر أيضًا بالأولاد والذرية على أحد المعنيين في قول العرب "لا أصل له ولا فصل"، فإن منهم من فسر الفصل باللسان، ومنهم من فسر ذلك بالولد، فإذا فسر بالولد، فالمعنى: لا تفتخر لا بأصولك ولا بفروعك، وافتخر بعملك الصالح، بدينك، بتقواك لله عَزَّوَجَلَّ، هذا الذي يرفعك الله عَزَّوَجَلَّ به.

وقولنا "افتخر" من باب التوسع في التعبير، وإلا من عمل صالحًا فإنه لا يفتخر، فلا يفتخر بعمله الصالح، لكن المقصود أن هذا هو موضع الفخر حقيقة وموطن الشرف والرفعة. وإلا فإن العبد لا يفتخر على غيره لا بعلمه ولا بعمله الصالح، ولا بأصله ولا بفصله.

(**إِنما أَصْلُ الفَتى مَا قَدْ حَصَلْ**) أي: ما حصله، والتحصيل يأتي بمعنى الاستخراج، ويأتي بمعنى الجمع، أي ما جمعه من العمل الصالح، وما جمعه من الأخلاق الحسنة، فيفتخر الإنسان بعمله – بمعنى أنه يشرف بعمله وينال الفخر بعمله – فينال الفخر والشرف بعمله، لا بآبائه ولا بأجداده.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤١) قَـدْ يسُـودُ المـرءُ مِـنْ دُونِ أبٍ ❁ وَبِحُسـنِ السَّـبْكِ قـدْ يُنفَـى الـدَّغَلْ

الشرح:

(قَدْ يسُودُ المرءُ مِنْ دُونِ أبٍ) يكون سيداً في الناس من غير أب، وقد لا يكون له أب بالكلية كعيسى بن مريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهو من سادات الأنبياء والمرسلين، فساد وهو من غير أب، وهكذا قد يسود المرء من غير أب، أي من غير أصل شريف، وإن كان له أصل لكن ما عنده أصل شريف، لكن يسود ويعلي الله عَزَّوَجَلَّ قدره ومنزلته بما عنده من العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، فيكون سيداً شريفاً في قومه وفي أوساط الناس، وإن لم يكن له أصل شريف.

(وَبِحُسنِ السَّبْكِ قدْ يُنفَى الدَّغَلْ) **والسبك**: إذابة الذهب والفضة، وإذا حسن السبك وذوب الشخص ما معه من الذهب والفضة التي فيها شيء من الدغل، فإنه بهذه الإذابة يصفى الذهب مما خالطه مما ليس منه، فيخرج الذهب وهو صاف نقي.

وهكذا الشخص قد يكون أصله غير شريف، لكن بعمله وتقواه وبأخلاقه الحسنة ينال الشرف، وتزول تلك الشوائب الموجودة في أصله وتلك المعايب الموجودة في أصله بحسن سبكه، وإذا استقام على الدين وعمل صالحاً، وحرص على العلم والعمل، وتحلى بالأخلاق الحسنة، فإن العيب الموجود في أصله يزول عنه، ويصير كالذهب المصفى، وينظر الناس إليه بالإجلال

والاحترام، فهو رفيع القدر والمنزلة في أوساطهم، ولا ينظرون إلى أصله إذا لم يكن له أصل شريف.

قال: رَحِمَهُ ٱللَّهُ

٤٢) إِنما الْوردُ مِنَ الشَّوكِ وَمَا ❁ يَنبُتُ النَّرجِسُ إِلاَ مِنْ بَصَلْ

الشرح:

(**إِنما الْوردُ مِنَ الشَّوكِ**): فكثير من الورد أصولها الشوك، فلا ينظر إلى أصلها، وإن نظرنا إلى أصلها فأصلها أقل منزلة مما صارت إليه، فهي وردة حسنة جميلة اللون، وقد تكون أيضًا طيبة الريح، ولا ينظر الناس إلى أصلها وأصلها قد يكون من الشوك. فهكذا الشخص لا يُنْظر إلى أصله، والله عَزَّوَجَلَّ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وهنالك أنبياء ورسل أخرجهم الله عَزَّوَجَلَّ من كافرين، فأصولهم كفار وهم خير الناس وأكرم الناس عند الله عَزَّوَجَلَّ، فيخرج الله عَزَّوَجَلَّ الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، فلا ينظر إلى أصول الناس، وإنما ينظر إلى الشخص نفسه، فالشخص يعليه عمله وخلقه وعلمه، ويشينه أيضًا عمله القبيح وخلقه القبيح وجهله.

(**وَمَا...يَنبُتُ النَّرجِسُ إِلاَ مِنْ بَصَلْ**) وهكذا النرجس زهرة طيبة الريح، وأصلها من البصل –وليس المراد بذلك البصل الذي يستعمله الناس في الأكل وفي الطبخ، وإنما هي بصلة النرجس تشبه البصل الذي يأكله الناس من حيث الصورة لا من حيث الحقيقة، ويقال لها بصلة النرجس، فهي بصلة لكن ليس المراد بها البصل الذي يأكله الناس أو الذي يباع في الأسواق، ويقال إنها بصلة

سامة مضرة –لكن النرجس هو نابت من ذلك الأصل، وقد قيل: من شأنها أنها تقتل جميع الأشجار، وتتفرد بالمكان، فإذا غرست في موضع تفردت بذلك الموضع وماتت الأشجار فيه، ولا تنبت الأشجار من حولها.

فالنرجس أصله ليس بأصل رفيع، لكن صار الفرع منه أفضل من الأصل.

فقد يكون الفرع أفضل من الأصل، ويكفينا في ذلك الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فمنهم من أصله كافر كإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكنبينا محمداً عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهما أشرف الأنبياء والمرسلين وهما: الخليلان. فالفرع قد يكون أعظم من الأصل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤٣) غَيـــرَ أَني أَحمـــدُ اللهَ عَلـــى ❁ نَســـبي إِذْ بِـــأَبِي بِكَـــرِ اتَّصـــلْ

الشرح:

بين رحمة الله عليه أنه وإن تكلم حول هذه المسألة فلا يعني أن نسبه ليس بأصيل، بل هو أصيل النسب، ونسبه بأبي بكر الصديق يتصل، لكنَّه أراد أن يبين الحكم الشرعي في هذه المسألة، وهو أنَّ الناس لا يُنظر إليهم باعتبار أصولهم، وإنما يُنظر إليهم باعتبار أعمالهم وأخلاقهم، ولا ينفع الشخص إذا كان له أصل رفيع وهو دنيء في خلقه وفي عمله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤٤) قِيمَةُ الإِنْسَانِ مَا يُحسِنُهُ ❁ أكثَرَ الإِنسَانُ منهُ أو أقَلْ

الشرح:

فهذا هو الميزان الصحيح، فإنَّ من أكثر من الأخلاق الحسنة والعمل الحسن عظمت قيمته، وإن أَقَلَّ من ذلك نقصت قيمته: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]. فكلما ازداد العبد تقوى ازدادت قيمته عند ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكلما نقص من التقوى نقصت قيمته، فقيمة الإنسان ما يحسنه من الأمور الحسنة والأخلاق الحسنة والعلم النافع والتقوى، فهذا هو الميزان الصحيح الشرعي.

وأما الميزان عند أهل الدنيا: فقيمة الإنسان ما يملك، إن ملكت ألفًا فقيمتك ألف، وإن ملكت أكثر من ذلك فقيمتك بمقدار ما تملك، وهذا ميزان فاسد وباطل، وهو ميزان أهل الدنيا.

قال بعدها رحمة الله:

٤٥) أُكْتُمِ الأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنَى ❁ وَاكْسَبِ الْفَلْسَ وَحَاسِبْ مِنْ مَطَلْ

الشرح:

قوله: (**أُكْتُمِ الأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنَى**) أي لا تظهر فقرك ولا تظهر غناك، فإن كنت فقيراً قليل المال أو معدمًا فاكتم ذلك، وإن كنت غنياً كثير المال فاكتم ذلك. وكما ذكر أهل العلم – ومنهم ابن الجوزي رحمة الله عليه في "صيد الخاطر" –

أن الإنسان ينبغي أن يكتم عمره – أي سنه – ويكتم ماله، وذلك أنه إذا كان كبير السن استهرموه، وإن كان صغيراً احتقروه، وإذا كان كثير المال حسدوه، وإذا كان قليل المال حقَّروه. فالسلامة أن يكتم مثل هذه الأمور. وقال بعضهم:

احْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَبُحْ بِثَلَاثَةٍ ... سِنٍّ وَمَالٍ مَا عَلِمْتَ وَمَذْهَبِي

فَعَلَى الثَّلَاثَةِ تُبْتَلَى بِثَلَاثَةٍ ... بِمُكَفِّرٍ وَبِحَاسِدٍ وَمُكَذِّبِ

أي: اكتم هذه الأمور الثلاثة: اكتم السن، واكتم المال –وزاد المذهب– واكتم مذهبك، قال: فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة: (بمكفر) – أي إذا علم مذهبك ربما كفرك بسبب مذهبك – و(بحاسد) فإذا أظهرت كثرة مالك ابتليت بالحاسدين، وإذا أظهرت سنك ربما كذبوك، فإن كنت صغيراً قالوا: تكذب، عمرك أكثر من هذا، وإن كبرت سنك ربما كذبوك قالوا: أنت لم تصل إلى هذا الحد. فالمؤلف رحمة الله عليه يشير إلى مثل هذا المعنى.

وقد قال الزمخشري في أبياته المشهورة:

إِنْ يَسْأَلُونِي عَنْ مَذْهَبِي لَمْ أُبِحْ بِهِ ... وَأَكْتُمُهُ كِتْمَانَهُ لِي أَسْلَمُ

فَإِنْ حَنَفِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي ... أُبِيحُ الطِّلَا وَهُوَ الشَّرَابُ المُحَرَّمُ

وَإِنْ مَالِكِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي ... أُبِيحُ لَهُمْ لَحْمَ الكِلَابِ وَهُمْ هُمْ

وَإِنْ شَافِعِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي ... أُبِيحُ نِكَاحَ البِنْتِ وَالبِنْتُ تُحْرَمُ

وَإِنْ حَنْبَلِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي ... ثَقِيلٌ حُلُولِيٌّ بَغِيضٌ مُجَسِّمُ

وَإِنْ قُلْتُ مِنْ أَهْلِ الحَدِيثِ وَحِزْبِهِ ... يَقُولُونَ تَيْسٌ لَيْسَ يَدْرِي وَيَفْهَمُ

فلهذا أسر مذهبه، ونصح بإسرار المذهب، وهذا فيه نظر، ولم يأخذ بهذا أكثر العلماء، وباحوا بمذاهبهم وأشهروها، ولم ينظروا إلى مثل هذه النصائح التي

هي في غير موضعها، وهذا فيما يتعلق بالمذهب، وأمَّا ما يتعلق بالسن، فتراجم العلماء مليئة بالمواليد والوفيات، وقد عُلم ذلك من أخبار العلماء، وليس في ذلك شيء من الضرر لا فيما يتعلق بالمذهب ولا فيما يتعلق بالسن، لكن ما يتعلق بالمال والفقر فله حظ من النظر، ولهذا الناظم اقتصر على هاتين المسألتين، فقال: (**أُكْتُمِ الأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنَى**) فنص على هاتين المسألتين. فمن باح بما عنده من المال فإنه لابد له من حاسد، والحاسد يسعى في الإضرار به بكل ما استطاع، ولو لم يكن إلا أن يصيبه بالعين، فقد يتضرر بذلك بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، فالكتمان أحسن.

وهكذا كتمان الفقر أحسن للشخص حتى لا يحتقر ولا يتنقص عند أرباب الدنيا الذين يعظمون الدنيا، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن الفقراء في زمن رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٣]، فلا يظهرون فقرهم، وقد امتدحهم الله عَزَّوَجَلَّ بذلك، فهذا من الأمر الحسن، فلا يبقى الشخص شاكياً للناس وذاكراً أحواله وفقره وحاجته، وإنما يشكو إلى ربه، القائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

والقائل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢]، فالله عَزَّوَجَلَّ هو مالك كل شيء، فإن شكوت فاشكُ إلى ربك: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦]، فلا تذكر حاجتك وفقرك عند الناس، اكتم هذه الأمور، وسل الله من فضله الذي بيده ملكوت كل شيء.

واكتم أيضًا الغنى، تسلم من الحاسدين.

(وَاكْسَبِ الفَلْسَ) أي اتجر إذا احتجت إلى ذلك، ولا تسأل الناس، وتعفف عن سؤال الناس، وفي حديث أبي هريرة، يقول: قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يَحْتَزِمَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً مِنْ حَطَبٍ، فَيَحْمِلَهَا عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا، يُعْطِيهِ أَوْ يَمْنَعُهُ». وفي حديث الزبير: «أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»، فالاكتساب خير للإنسان من أن يسأل الناس ويذل نفسه بمسألة الناس. ولهذا قال: (وَاكْسَبِ الفَلْسَ) وقد ألف الخلال رحمة الله عليه كتابًا حسنًا في فضل التجارة، وهو من الكتب المطبوعة.

(وَحَاسِبْ وَمَنْ بَطَلْ) يقال: بطل الأجير بمعنى تعطل. فإذا عندك أجير يعمل، حاسبه، فإن حساب العمال من هدي رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يحاسب عماله، وهذا من الحزم في الأمور، فلا تضيع حقك إن كان لك، ولا حقوق المسلمين. فمحاسبة الأجراء من حفظ المال. فحاسب من بطل – من حصله شيء من التعطيل في العمل ولم يقم بالعمل على الوجه المراد – فهذا من الحزم في الأمور حتى لا يضيع مالك سدى. فقال: (وَاكْسَبِ الفَلْسَ وَحَاسِبِ البَطَلْ) والفلس هي أدنى الأموال، وفوق الفلوس الدراهم، وفوق الدراهم الدنانير – أعني ما كان عليه الأمر قديمًا – فالدينار من الذهب، والدراهم الفضة، والفلوس من النحاس. والمعنى: اكتسب ولو الشيء اليسير، تستعف به عن مسألة الناس.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤٦) وَادَّرِعْ جَـدًّا وَكَـدًّا وَاجْتَنِـبْ ❁ صُـحْبَةَ الْحَمْقَـى وَأَرْبَـابَ الـدُّوَلْ

الشرح:

قال: (**وَادَّرِعْ جَدًّا**) **المراد بذلك:** لبس الدرع، يقال: ادرع الرجل درعه إذا لبسها. والمراد هنا الدرع المعنوي، فاجعل ذلك درعاً لك، وهما: الجد والكد، فاجعل هذين درعاً لك: الجد والاجتهاد، والكد الذي هو الشدة في العمل وطلب الكسب، كن مجداً مكداً، فعندك الشدة في العمل وطلب الكسب، لا تكن كسولاً. وسواء كان ذلك فيما يتعلق بالآخرة أو بالدنيا، والآخرة أولى من الدنيا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩]، فيحتاج العبد إلى الجد والكد في عمل الآخرة، وأعظم شر يتقيه العبد نار جهنم.

وهكذا فيما يتعلق بأمر الدنيا، فيحتاج العبد إلى الجد والكد، أي فيما يحتاج إليه منها، حتى يحصل ما يصونه عن مذلة السؤال، فالجد والكد في أمر الدنيا مما يصون العبد عن السؤال، وقد سبق الكلام في ذلك، وكيف أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حث على أن يأخذ الشخص حبله ويذهب إلى الجبل ويجمع الحطب، ثم يقوم ببيعه ويأكل ويتصدق، فهو أفضل من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه، فإذا احتاج الإنسان إلى ذلك فلا عيب فيه، والعيب في مسألة الناس.

ونصح رحمة الله عليه بالابتعاد عن صحبة الحمقى، فإن الأحمق يضرك، وضرره كثير ونفعه قليل. وفي الصحيحين من حديث أبي موسى، عن النبي

ﷺ، قال: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً».

والأحمق من جلساء السوء، ولن تخلو من ضرر إن أنت صاحبته، فقد يضرك بقوله، وقد يضرك بفعله، وقد تتضرر من كلام الناس فيك ومن إساءة الظن بك، فإن المرء على دين خليله، فعن أبي هريرة، أن النبي ﷺ، قال: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»

يُقَـــاسُ المَـــرْءُ بِـــالمَرْءِ إِذَا مَـــا هُـــوَ مَاشَـــاهُ
وَلِلْقَلْـــبِ عَلَـــى القَلْـــبِ دَلِيـــلٌ حِـــينَ يَلْقَـــاهُ

فمن ماشى شخصًا ألحق به، فعلى المرء أن يجالس أصحاب الهمم العالية، يجالس العقلاء من الناس، ومن جالس العقلاء ازداد عقله، ومن جالس الحمقى تأثر بحماقتهم.

كان بعض السلف يقول: في عقولنا نقص، فإذا جالسنا هؤلاء الحمقى ذهبت عقولنا. وإذا كان الشخص يتأثر بالحيوان، فكيف لا يتأثر بالإنسان؟! ولهذا كانت الغلظة في أصحاب الإبل، والسكينة في أصحاب الغنم. ومن عاشر الكلاب تأثر بطباعها، ومن عاشر الخنازير تأثر بطباعها، فيتأثر الإنسان بمن يجالس، ولو كان من الحيوان، فضلاً عن الإنسان، فمن جالس العقلاء تأثر بهم ونما عقله، ومن جالس الحمقى تأثر بهم وضعف عقله.

وهكذا الذي يكثر من مجالسة الصغار يتأثر بهم وبطبائعهم. فليكن جليس الإنسان العقلاء كي يزداد عقله، ويبتعد عن الحمقى. فالأحمق يضرك وهو يريد أن ينفعك، فالأحمق صديق سوء، فينبغي أن يُبتعد عنه. قال بعضهم:

لِـي صَـدِيقٌ يَـرَى حُقُـوقِي عَلَيْـهِ ... نَـافِلَاتٍ وَحَقُّـهُ كَـانَ فَرْضَـا
لَـوْ قَطَعْـتُ جِبَـالَ الأَرْضِ طُـولًا إِلَيْـهِ ... ثُـمَّ سِـرْتُ مِـنْ بَعْـدِ طُولِهَـا عَرْضَـا
لَـرَأَى مَـا فَعَلْـتُ غَيْـرَ كَثِيـرٍ ... وَتَمَنَّـى أَنْ أَزِيـدَ فِـي الأَرْضِ أَرْضَـا

فهذا أحمق، فيبتعد عن مثل هؤلاء الأصناف. وقد تكلم العلماء على الحمقى، وبينوا بعض أحوالهم وبعض صفاتهم، وألفوا في ذلك المصنفات، وذكروا ذلك في كتب الآداب، كابن حبان في "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء"، وهكذا ككتاب "أدب الدنيا والدين"، وهكذا "الحمقى والمغفلين" لابن الجوزي، وقد بسط رحمه الله القول فيهم، وذكر جملة من أخبارهم ومن قصصهم ومن عجائب أمورهم.

وقد ذكروا من صفاتهم: سرعة الجواب وترك التثبت، فهذه من علامة الأحمق، أنه سريع الجواب، ما عنده تثبت وتأنٍ في الأمور، وما في قلبه يجري على لسانه. وبعض الناس يظن أن هذا من المحمدة، ويقول: أنا ما في قلبي على لساني، وما يدري أنها صفة الأحمق، فالأحمق ما في قلبك يجري على لسانك؟! ما في قلبك أجعله محبوسًا في قلبك، ولا تتكلم إلا بما فيه مصلحة وما فيه منفعة، وليس كل ما في قلبك تجريه على لسانك، فإنَّ هذا من صفات الأحمق.

وهكذا يقولون: الإفراط في الضحك من صفات الأحمق، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان لا يكثر من الضحك، وكان ضحكه التبسم، وحذر النبي

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الإكثار من الضحك، قال: «وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ».

وهكذا يذكرون من صفات الأحمق: كثرة الالتفات كالثعلب، فما عنده وقار.

ويذكرون من صفات الأحمق: الوقيعة في الأخيار والاختلاط بالأشرار، فلسانه لاذع على خيار الناس، فيسعى في ذمهم، وفي إخراج معايبهم، وفي القدح فيهم، مع مصاحبة الأشرار، والوقيعة في الأخيار. وقالوا: الأحمق لا يستقيم عهده، ولا يفي بعهده، والدنيء يستقيم مع من عاشره، ولا يفي بعهده، بل ينقض العهود، هذا بعض ما يذكره العلماء من صفات الأحمق، ويذكرون صفات خَلقية وصفات خُلقية، غير أن الصفات الخَلقية ليست بقاعدة مطردة، فقد توجد تلك الصفات في أناس ليسوا كذلك.

وهكذا تعرضوا إلى الخاتم وإلى فصه، فإذا كان فص الخاتم كذا فهو دليل على الحمق، وإذا كان كذا فلا يدل على الحمق.

وذكروا أشياء كثيرة وليست بقاعدة مطردة، لكن الذي يفعل الأشياء التي تدل على ضعف عقله، فهذا علامة حمقه، وسواء في ملبسه أو في خاتمه، فمن يفعل أشياء يستنكرها العقلاء، فهذا يدل على ضعف في عقله، وسواء كان في ملبسه أو في خاتمه أو في قوله أو في فعله، وهذا شيء لا يكاد الشخص يغفل عنه، والشخص اللبيب يدرك بأن فلانًا فيه حمق أو لا: من منطقه ومن فعله ومن تصرفاته.

وما يتعلق – كما عرفنا – بالأمور الخَلقية فليست بأمر منضبط، غير أن اعتدال الخلقة غالباً تدل على اعتدال في العقل والمزاج، وهذا باعتبار الغالب، لكن ليس ذلك بقاعدة مطردة. فلا يبقى الإنسان يقرأ في الصفات الخَلقية في الحمقى وينظر في إخوانه: ويقول: فلان صغير الرأس، فلان طويل اللحية، فلان قصير الأذن، فهذا أحمق! هذا ليس بقاعدة مطردة.

وقد ذكر ابن الجوزي جملة من أخبارهم ومن حماقاتهم. ومن جملة ما ذكره رحمة الله عليه في ترجمة أبي عبد الله الجصاص: أنه جاء ببطيخة أراد أن يعطيها وزيراً من الوزراء، وكان واقفاً بجوار نهر الفرات، وأراد أن يتفل في نهر الفرات، وأن يعطي الوزير البطيخة، فانعكس به الحال، فرمى البطيخة في النهر، وتفل في وجه الوزير، فاغتاظ الوزير من فعله، فقال له: والله أخطأت، أردت أن أتفل في وجهك وأن أرمي البطيخة في نهر الفرات، قال: هكذا فعلت، فأخطأ في الفعل وأخطأ في الاعتذار، وذكر عنه أنه كان يقرأ في المصحف، ووصل إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:٣].

وكان يقرأها: "دِرْهَمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا"، فيقول: هذا رخيص، والله آكل وأتمتع بدرهم، هذا من فضل ربي.

وهكذا ذكر في ترجمة عبد الله بن بيدرة، وكان من بني قيس، وكان في ذلك الزمن بني وائلة يعيرون بالفسو، وصار عاراً لهم، فجاء شخص إلى سوق عكاظ ينادي في الناس ويقول: من يشتري مني عار الفسو ببردي هذين –لبردين معه– فجاء عبد الله بن بيدرة وقال: أنا أشتري منك هذا العار، فأشهد عليه في القبائل

بأن العار نزع منهم إلى بني قيس، فأخذ البردين ورجع إلى قومه وقال لهم: جئتكم بعار الدهر، فزال العار من وائلة ولزم العار بني قيس.

وهذا أيضاً من حمقه، وهكذا ذكر في ترجمة أسيد الأحمق: أنه قيل له: حدثنا بحديث عن عبد الله بن عمر، فقال: كان عبد الله بن عمر يحف شاربه حتى يبدو بياض إبطيه.

فما هي علاقة الإبط بالشارب؟! لكن هذا من حمقه.

وذكر في ترجمة جحا: أنه سمع في داره صراخاً، فجاءه آت فقال: ما هذا الصراخ؟ قال: سقط قميصي من الأعلى. فقال له – وكان ماذا؟ – قال: يا أحمق، أرأيت لو كنت فيه، ألم أسقط معه؟.

وهكذا ذكر في ترجمته: أنه مات جار له، وذهب إلى الحفار من أجل أن يحفر قبراً لجاره الذي مات، فحصل اختلاف بينه وبين الحفار في أجرة الحفر، فاختلفوا، فذهب إلى السوق واشترى خشبة، قيل له: لم اشتريت هذه الخشبة؟ قال: لنصلبه عليها، فالحفار يريد خمسة دراهم، وهذه الخشبة اشتريتها بدرهمين، فنوفر ثلاثة دراهم، ونقيه من ضغطة القبر ومن سؤال منكر ونكير.

فعلى كلٍ: ذكر أخباراً كثيرة فيما يتعلق بالحمقى والمغفلين، ومنهم من كان يتعمد التغفيل، وليس بمغفل.

قال بعضهم:

احْـــذَرِ الأَحْمَـــقَ أَنْ تُصْـــحِبَهُ ... إِنَّمَـا الأَحْمَـقُ كَـالثَّوْبِ الخَلِـقِ

كُلَّمَـــا رَقَعْتَـــهُ مِـــنْ جَانِـــبٍ ... حَرَّكَتْـــهُ الـــرِّيحُ هُنَـــا فَـــانْخَرَقَ

أَوْ كَصَـدْعٍ فِـي زُجَـاجٍ فَـاحِشٍ ... هَـلْ تَـرَى صَـدْعَ زُجَـاجٍ يَرْتَـقِ

أَوْ كَحِمَـــارِ السُّـــوءِ إِنْ أَقْصَـــمْتَهُ رَمَـــحَ النَّـــاسَ وَإِنْ جَـــاعَ نَهَـــقَ

(كحمار السوء، إن أقضمته) – أي أعطيته الطعام – رمح الناس – أي أصاب الناس بمؤخرة قدمه – إذا شبع، وإذا جاع نهق. فهذا مثال الأحمق، فهو كالثوب الخلق البالي، إن رقعته في موضع، انقطع من موضع آخر. أو كالزجاج إذا حصل فيه صدع فاحش، كيف تستطيع أن ترتق ذلك الصدع الذي فيه؟!.

وهكذا الأحمق، مهما أردت أن تحسنه وأن تزيل ما به من العيب، فإنك لا تستطيع، فإن نصحته في أمر معين جاءته الحماقة من وجه آخر، وإن أردت أن تعالج الحماقة الثانية جاءت حماقة ثالثة، فتعيش معه في كد وتعب. فالسلامة أن تبتعد عنه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤٧) بَـــيْنَ تَبْـــذِيرٍ وَبُخْـــلٍ رَتْبَـــةٌ ❁ وَكِـــلا هَـــذَيْنِ إِنْ زَادَ قَتَـــلْ

الشرح:

أي: كن مقتصداً في نفقتك، ولا تكن من المبذرين، ولا تكن من البخلاء الممسكين، وإنما كن بين ذلك. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]، لا تبذير ولا إقتار، وإنما توسط في النفقة، سواء النفقة على النفس أو على الأهل أو الأولاد، أو النفقة على الفقراء والمساكين، فليكن الشخص متوسطًا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]. فهذا الذي حث عليه رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ

فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩]. ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ – أي: لا تكن بخيلاً – ﴿وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ – أي لا تتجاوز الحد في العطاء والإنفاق – فلا تكن ممسكًا ولا متجاوزاً الحد في النفقة والعطاء، وكن متوسطًا مقتصداً. ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ – أي: تلام إذا أمسكت، لأن الناس يقولون: فلان عنده المال الكثير، ورزقه الله كذا وكذا، وفتح الله عليه في الدنيا، لكنه بخيل لا يعطي شيئًا، ولا يحسن إلى نفسه ولا إلى أهله ولا إلى أولاده ولا إلى جيرانه ولا إلى أصحابه، ولا يصل بذلك الرحم، ولا يقرئ الضيف، فيبقى يلام ويتكلم في عرضه إن كان ممسكًا بخيلًا مذمومًا محسورًا.

ومتى يقعد وهو محسور (**أي كليل متعب**)؟.

الجواب: إذا بسطها كل البسط؟ فإذا أنفق ماله وتجاوز في البذل والعطاء، فإنه يبقى كالكليل المتعب، فإن صاحب المال يتحرك بماله وينشط بماله، والذي أخرج ماله لا يبقى معه شيء، فيبقى كالمتعب الكليل، ليس عنده شيء يحركه ويقوم به: فلا يتحرك في البيع والشراء، فلا يتحرك إلى الأسواق يشتري ما يحتاج إليه أو يحتاج إليه أهله وأولاده ومن يعول، فيبقى كليلاً كالإبل المتعبة.

وقد قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، العفو بمعنى الفضل، أي ما فضل عن حاجتك وعن حاجة من تعول، فالنفقة المحمودة ما كان زائدًا على حاجة الإنسان وحاجة من يعول.

(وَكِلا هَذَيْنِ إِنْ زَادَ قَتَلْ) أي: أهلك الشخص: إذا أمسك فإنه يهلك، وإذا أسرف فإنه يهلك. فالإسراف هلاك، والبخل هلاك، وهو من الهلاك المعنوي.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤٨) لَا تخُضْ في حَقِ سَاداتٍ مَضَوا ❁	إنهـــم لَيسَّـــوا بأهْـــلِ للزَّلَـــلْ

الشرح:

أي: لا تخض بالباطل، ولا تتكلم في أعراض من مضى من المسلمين، وأعظم سادات المسلمين بعد الأنبياء والرسل هم: الصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين. وهكذا العلماء الذين لهم قدم السبق، فلا يُتكلم فيهم إلا بالجميل، فتذكر محاسنهم، ويُغض الطرف عن مساوئهم، ولا سيما الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، الذين هم خير هذه الأمة بعد الأنبياء والرسل، ما كان ولا يكون مثلهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، ونصروا الإسلام بأنفسهم وأموالهم، وجاهدوا الكافرين حتى انتشر الإسلام في أطراف الأرض، ودافعوا عن رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وما نُقل إلينا الدين إلا عن طريقهم، فنقلوا إلينا القرآن، ونقلوا إلينا السنة، ومن جاء بعدهم فهو حسنة من حسناتهم، وهم من حسنات رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. فكم لهم من الأجور! فهم الذين نقلوا إلينا الإسلام، ونقلوا إلينا الكتاب والسنة، وكل من دخل في الإسلام، وكل من عمل بالكتاب

والسنة فلهم أجر ونصيب من عمله؛ لأنهم هم الذين نشروا الدين، وهم قبل ذلك - كما عرفنا - حسنة من حسنات رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فمن نظر في أخبارهم وفي شأنهم وفي أحوالهم دعاه ذلك إلى حبهم، وحبهم واجب، وحبهم إيمان، وبغضهم نفاق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]. فإنما ينغاظ من أصحاب رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من كان كافرًا بالله وبرسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فالواجب أن نكف ألسنتنا عن مساوئهم، وهي مغمورة في بحار حسناتهم، وإذا كان الماء إذا بلغ قُلَّتين لم يحمل الخبث، فإن حسناتهم أكثر من ذلك، فهي بحار زاخرة، وسيئاتهم شيء يسير فلا تؤثر في تلك البحار الزاخرة. والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وهكذا العلماء من أهل الخير والاستقامة، لا يتعرض الإنسان إلى مساوئهم ولا يطعن في أعراضهم، وليستغفر لهم، وهم بشر يصيبون ويخطئون، فيستغفر لهم إن أخطأوا، ويُذكَرون بالجميل إن أصابوا.

وهذا في علماء السنة، علماء السلف ممن قد عُلموا بالخير والسنة والاستقامة على الدين، فيُستغفر لهم إن أذنبوا، ويُثنى عليهم إن أحسنوا.

قال ابن عساكر رحمه الله: "لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، ومن سارع فيهم بالثَّلْب أبلاه الله قبل موته بموت القلب".

وقوله: (**إنهم ليسوا بأهل للزلل**)، وذلك أنَّه وإن حصل الزلل منهم فهي هفوة من الهفوات، لا أنهم أهل للزلل؛ فإن أهل الزلل هم الملازمون لذلك، الذين

عُرفوا بالشيء، فمن لازم الشيء وعرف به فهو أهله، كما يقال "أهل القرآن" وهم الذين لازموا القرآن وحفظوه وعملوا به، فنُسبوا إلى القرآن لملازمتهم له، ويقال "أهل العلم" لأنهم لازموا العلم فصحبوه وانتسبوا إليه.

فهؤلاء السادة إن حصلت منهم زلة فليسوا بأهل لها، وإنما هي سقطة وفلتة، وهم غير معصومين، والأصل أنهم أهل الخير وأهل العلم وأهل التقوى والورع، فينسبون إلى هذه الصفات الرفيعة العالية فهم أهلها، فهم أهل العلم والإيمان وأهل التقوى وأهل الإحسان، وما هم بأهل للزلل، وإنما هي هفوات وزلات تحصل لهم، والظن فيهم أنهم لم يتجرؤوا على المخالفة وعلى المعصية.

فعلى كلٍ: يُذكَر جميلهم، ويُستغفر لهم إن حصل منهم شيء من الخطأ والزلل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤٩) وَتَغَافَلْ عَنْ أُمُورٍ أنه	❁	لم يفُزْ بِالحْمدِ إلاَ مَنْ غَفَلْ

الشرح:

في هذا البيت يحث ابن الوردي رحمة الله عليه على التغافل، والتغافل غير الغفلة؛ فالمتغافل مدرك للأمر لكنه يتغاضى عنه، والغافل الذي لا شعور له.

فقوله: (**إلا من غَفَل**) يريد بذلك التغافل، فيظهر الغفلة وليس بغافل، وإنما هو متغافل، وبهذا ينال العبد العافية.

قال الإمام أحمد: "العافية عشرة أجزاء، كلها في التغافل".

فإذا تغافل الإنسان عن زلات الإخوان وعن سوء عشرتهم، فإنه ينال العافية.

وإذا بقي يحاسب إخوانه على كل خطأ وكل زلل فعلوه، فإنه ينفر منه القريب قبل البعيد، ويكثر أعداؤه، وتحصل الوحشة بينه وبين الناس.

وكما قال الحسن البصري: "ما استقصى كريم".

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣]، فلم يعاتب على جميع ما حصل، وهذا شأن الكرماء، وقد يحتاج الشخص إلى العتاب في بعض الأمور، لكن لا يعاتب في جميع الأمور، ويستعمل مع الناس التغافل، فمن أساء إليه فليتغافل عن ذلك وكأنه لم يحصل منه شيء، وإن احتاج إلى العتاب فيكون في بعض الأمور من باب العلاج والإصلاح، ولا يعاتب في جميعها.

وهكذا يتعامل مع العدو بالتغافل مع علمه بما يريد ومع حذره منه، فيعلم كيده ويعلم شره، ويتعامل معه بالتغافل وكأنه لا يشعر مع أنَّه يشعر، فبهذا يسلم من كثير من الشرور.

وأما إذا واجه المرء كل مسيء بإساءته، وأراد أن ينتقم لنفسه في كل شيء، فإنه يهيج على نفسه الأعداء، وينفر عن نفسه الأصدقاء، وإن تعامل مع أعدائه بذلك هيجهم عليه، وإن تعامل مع أصحابه وأصدقائه بذلك فإنه ينفرهم عنه بهذا الخلق. فلهذا حث من مضى على التغافل، وبينوا أن ذلك هو العافية؛ فإن أردت لنفسك العافية فتغافل عن الناس إن أساءوا إليك وإن بغوا عليك، وإن احتجت إلى العتاب فأقلل من ذلك، ولا تعاتب في كل شيء، ولا تنتقم من كل

من أساء إليك، قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وهكذا كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يتعامل مع المنافقين مع علمه بهم وبمكرهم وكيدهم، وكانوا: ﴿يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]، فليس هو بجاهل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل هو عليم بالمنافقين وبأمورهم، فكان يتغافل عن كثير من الأمور مع علمه بها. فالتغافل مما حث عليه العلماء، وبينوا أن ذلك هو سبيل العافية.

وقد بالغ الإمام أحمد رحمة الله عليه فبين أن جميع العافية في التغافل، ليس تسعة أعشار العافية فقط في التغافل، وإنما جميع العافية بالتغافل.

فليتعامل الإنسان بذلك مع أهله ومع أولاده ومع أصحابه ومع الجيران، ومع القريب والبعيد والصديق والعدو، إلا فيما لا بد منه؛ فقد يحتاج الشخص إلى أن ينبه المخطئ على خطئه، وأن يعاتبه لما في ذلك من المصلحة له في بعض الأوقات، فيستعمل التغافل في أوقات، والتأنيب في أوقات، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣]، فلم يتغافل عن جميع الأمر، وإنما ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣].

فإن كنت متغافلاً حمدك الناس واجتمعت قلوبهم عليك. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وكان هذا خلق النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فاجتمعت عليه القلوب: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي لتفرقوا من حولك، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ

عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. والآية وردت في شأن غزوة أحد، فكانت المشورة من رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يبقوا في المدينة ويقاتلوا المشركين وهم في المدينة، فأصر عليه بعض الصحابة الذين لم يشهدوا بدرًا بالخروج، فلما أكثروا عليه أجابهم إلى ما أرادوا، فحصلت المحنة على المسلمين كما هو معلوم، فقال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أي: وإن أخطأوا في هذه المشورة التي حصلت منهم، فلا يعني أن تترك مشاورتهم في المستقبل، بل شاورهم في الأمر؛ فإن ذلك فيه تطييب للنفوس، وغير ذلك من المصالح العظيمة.

فالتغافل عن بعض الأمور مما يستحسن، والعتاب إنما يكون على بعض الأمور، ولا يستقصي الشخص في العتاب؛ فكثرة العتاب مَذْهَبَة للأصحاب.

إذا كنت في كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلقى الذي لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فإنه ... مقارف ذنبا تارة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وصدق رحمة الله عليه، فإذا كان الشخص في كل الأمور يعاتب، فإنه لن يلقى شخصًا لا يعاتبه؛ فإنه يعاشر البشر، ولا يعاشر الملائكة، فمن صاحب شخصًا وعاشر الناس لا بد أن يلقى منهم ما يكره، فيعاتب في بعض الأمور من أجل الإصلاح، ويتغافل عن كثير من الأمور، كما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ عن نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥٠) لَيسَ يخلُو المرءُ مِنْ ضدٍّ وَلَو ❁ حَاوْلَ العُزلةَ في رَأسِ الجبَلْ

الشرح:

فصاحب النعمة لا يخلو من حاسد، والذي لا حاسد له فليبكِ على نفسه؛ فإنه لم يُخَصَّ بنعمة من الله عَزَّوَجَلَّ يحسد عليها. فإذا عشت ولا حاسد لك، فأعلم أنك لم تُخَصَّ بنعمة وفضل من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الحاسد هو عدو النعم. و"الضد" بمعنى الحاسد وبمعنى العدو.

ومن هذا الباب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]. فجعل الله عَزَّوَجَلَّ لأنبيائه ورسله الأعداء من شياطين الإنس ومن شياطين الجن، ووعدهم الله عَزَّوَجَلَّ بالنصر عليهم بالحجة والبيان وبالسيف والسنان، فقال: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، فنصرهم بالكتاب الهادي والسيف الماضي، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، فنصر الله عَزَّوَجَلَّ رسله بالأمرين: بالكتاب الهادي وبالسيف الماضي.

وكلما كثرت عليك النعم كثر الحاسدون لك، والحسد داء عضال.

فهنالك من حسد فأوقعه حسده في الكفر، كإبليس حسد آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فلُعِن وطُرِد من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، أوصله الحسد إلى الكفر فأبى واستكبر وكان من الكافرين، ومبدأ ذلك هو الحسد.

واليهود حسدوا العرب، وأرادوا أن تكون النبوة في بني إسرائيل، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، فكفروا بالله عَزَّوَجَلَّ.

وقد يقع العبد بسببه في البدع والضلالات والأهواء. والحاسد حقير ومهين، ولهذا قيل في المثل: "الحسود لا يسود" أي لا يكون سيدًا في الناس.

وضرر الحاسد ضرر شديد، لكن يصرف الله عَزَّوَجَلَّ ضرر الحاسدين بالتقوى، فمن كان متقيًا لله عَزَّوَجَلَّ وصابرًا نجاه الله عَزَّوَجَلَّ من ضرر الحاسدين، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، بالصبر والتقوى تنجو من ضرر الحاسدين.

وهكذا بالاستعاذة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١-٥]، فيستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ من شر الحاسدين.

وقيل في المثل: "أسد تقاربه خير من حسود تراقبه"، وفي الأمثال المعاصرة: "عِظَة أسد ولا نظرة حسد". فنظرة الحاسد قد تهلك - والعياذ بالله - فلا يخلو صاحب النعمة من حاسد.

لله در الحسد ما أعدله ... بدأ بصاحبه فقتله

والحاسد إنما يضر نفسه، وقد يحسد الشخص غيره فيضر نفسه، ويكون سببًا في انتشار فضائل من حسده، ربما كانت قبل ذلك مغمورة، فبحسد الحاسد تصير مشهورة.

وإذا أراد الله نشـــــر فضــــيلة   طويـت أتـاح لهـا لسـان حسـود

فتظهر بالحسد.

ولولا اشتعال النار في جزل الغضا   مـا كـان يعـرف طيـب ريـح العـود

ويحتاج العبد إلى صبر.

واصـبر علـى كيـد الحسـود   فــإن صـبرك قاتلـــه

كالنـــار تأكـــل بعضـــها   إن لـــم تجـــد مـــا تأكلـــه

فعليك أن تيأس إن كنت صاحب نعمة من السلامة من الحاسدين، فلا بد لك من حاسد مهما أردت أن تبتعد وأن تنعزل، فالحاسد يأتي إليك.

فإذا كـان الأمـر كـذلك، فليلازم العبـد تقـوى الله عَزَّوَجَلَّ ويتحلـى بالصـبر، ولا يجازي المسيء بمثل إساءته، فيصبر على المسيء وعلى الحاسد، ويتقي الله عَزَّوَجَلَّ، ويستعيذ بالله من شره، فينجيه الله عَزَّوَجَلَّ من شره بإذنه، ويجعل الله له الرفعة، ويزيده الله من نعمه، والحاسد يهلك نفسه - والعياذ بالله- .

والحاسد إما أن يتمنى زوال النعمة عن الغير، أو يريد عدم وجود النعمة للغير؛ فقد يكون للغير نعمة وهو يتمنى أن تزول تلك النعمة عنه، وقد لا تكون للغير نعمة يختص بها، فلا يريد أن يمن الله عليه بنعمة، بل يريد أن يبقى الشخص على ما هو عليه، فيكره أن ينعم الله عَزَّوَجَلَّ على ذلك الشخص بنعمة. ويريد أن يبقى من يحسده على حاله، فإن كان فقيرًا يريد أن يبقى على فقره، وما

يريد أن الله عَزَّوَجَلَّ يمن عليه بالغنى، وإن كان جاهلاً فيريد أن يبقيه الله عَزَّوَجَلَّ على الجهل، ولا يريد أن يمن الله عَزَّوَجَلَّ عليه بالعلم. فهذا هو الحاسد: فقد يتمنى زوال النعمة، وقد لا يريد تجدد نعمة وحصولها، فهذا هو الحسد المذموم.

أما الغبطة والتنافس فلا يدخل فيها الحسد المذموم المحرم؛ فإذا أردت أن تكون مثل فلان فتنافسه كي تكون مثله في الخير والفضل، فهذه غبطة. وهناك من أدخلها في مسمى الحسد، إلا أنه مما لا يحرم، فلو أدخلناها في مسمى الحسد فإن ذلك مما لا يحرم، وهو داخل في التنافس، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه يقول: "لا يخلو جسد من حسد، لكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه"، وهذا باعتبار الأمر الغالب، وإلا هناك من نجاه الله عَزَّوَجَلَّ من الحسد بالكلية وعافاه الله، كشأن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكشأن غيره. لكن هذا باعتبار الأمر الغالب، وعلى الإنسان أن يجاهد نفسه، ولا لوم عليه إذا جاهد نفسه، ويرجى له الأجر والثواب؛ فإن شعر بحسد في قلبه فجاهد نفسه، وما أبداه وما أساء إلى غيره، بل جاهد نفسه في الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا يؤجر على جهاده في مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥١) مِـلْ عَـنْ النَمَّـامِ وازجُـرْهُ فَمَـا ❁ بلَّـغَ المكـروهَ إلا مَـنْ نَقَـلْ

الشرح:

(مِلْ) أي انحرف (عن النمام) وابتعد عنه، (وازجُرْهُ) أي: على نقله للحديث وعلى نميمته، (فما... بلَّغَ المكروهَ إلا مَنْ نَقَلْ) وهذا كلام حق؛ فالذي يخبرك بكلام أخيك هو الذي بلغك المكروه، فهو الملام، فناقل المكروه هو الذي أساء إليك، وقبل ذلك كان ذلك الكلام لا يؤذيك لأنك لا تدري به ولا تشعر به. فمن أخذ الكلام السيء من شخص وقام بنقله إلى شخص آخر، فهذا الناقل في الحقيقة هو الذي آذاك، وهو الذي أدخل عليك الضيق وأدخل على نفسك الألم، فهو أولى بالزجر.

والنميمة من كبائر الذنوب، ومن صفات الكافرين: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ❁ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ❁ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ❁ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١٣].

فالنميمة من صفات الكافرين، وهي كبيرة من كبائر الذنوب.

وفي الصحيحين: من حديث حُذَيْفَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ**». وفي مسلم: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ**» والقتات هو النمام.

وفي مسلم: من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَالَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ**». والعضه بمعنى السحر،

فالنميمة تعمل عمل السحر، أي من حيث التفريق بين الأصحاب، بل قد يحصل بها التفريق بين الزوج وزوجه كما يفعل الساحر.

وقد رُوِيَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ أَنَّهُ قَالَ: بَاعَ رَجُلٌ غُلَامًا، فَقَالَ لِلْمُشْتَرِي لَيْسَ فِيهِ عَيْبٌ إِلَّا أَنَّهُ نَمَّامٌ، فَاسْتَخَفَّهُ الْمُشْتَرِي فَاشْتَرَاهُ عَلَى ذَلِكَ الْعَيْبِ.

فَمَكَثَ الْغُلَامُ عِنْدَهُ أَيَّامًا ثُمَّ قَالَ لِزَوْجَةِ مَوْلَاهُ: إِنَّ زَوْجَكِ لَا يُحِبُّكِ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَسَرَّى عَلَيْكِ، أَفَتُرِيدِينَ أَنْ يَعْطِفَ عَلَيْكِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ لَهَا: خُذِي الْمُوسَى وَاحْلِقِي شَعَرَاتٍ مِنْ بَاطِنِ لِحْيَتِهِ إِذَا نَامَ.

ثُمَّ جَاءَ إِلَى الزَّوْجِ وَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتَكَ تَخَادَنَتْ يَعْنِي اتَّخَذَتْ خَلِيلًا.

وَهِيَ قَاتِلَتُكَ.

أَتُرِيدُ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَتَنَاوَمْ لَهَا.

فَتَنَاوَمَ الرَّجُلُ، فَجَاءَتِ امْرَأَتُهُ بِمُوسَى لِتَحْلِقَ الشَّعَرَاتِ فَظَنَّ الزَّوْجُ أَنَّهَا تُرِيدُ قَتْلَهُ، فَأَخَذَ مِنْهَا الْمُوسَى فَقَتَلَهَا فَجَاءَ أَوْلِيَاؤُهَا فَقَتَلُوه.

فَجَاءَ أَوْلِيَاءُ الرَّجُلِ وَوَقَعَ الْقِتَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وكان السبب في ذلك هو النمام. فالنمام يفسد ما لا يفسده الساحر.

قال بعض السلف: "يفسد النمام في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة".

ففساده فساد عريض ومستطير، وربما يحصل فساد بين القبائل بنمام، فتتقاتل القبائل بسبب نمام، وربما تتقاتل الدول بسبب نمام، فشره أعظم من شر الساحر، وفساده من أعظم الفساد؛ فلهذا قال رَسُولَ اللهِ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ**».

والنمام فاسق، وهو واقع في كبيرة من كبائر الذنوب، والفاسق لا يقبل خبره إذا لم تقم الأمارات الدالة على صدقه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. فهو فاسق، والذي ينبغي للشخص أن يرد خبره، ويقول للنمام: "أنت فاسق وخبرك غير مقبول، وأنت غير مصدق فيما تقول".

فهكذا ينبغي أن يزجر، وأن لا يفتح الشخص أذنيه بالسماع من النمامين الفاسقين.

وإذا سد الشخص أذنيه عن النمامين استراح وعاش مطمئن القلب لا يحقد على أحد من إخوانه المسلمين، وإذا فتح أذنيه للنمامين أتعب قلبه وعاش في ضنك. فالراحة في ترك النمامين وفي ترك أخبارهم وفي زجرهم.

والنميمة هي نقل الحديث من شخص إلى آخر على وجه الإفساد، وما كان على وجه النصيحة فلا يدخل في النميمة، ومن لم يفرق بين النصيحة والنميمة، فعليه أن يسد على نفسه هذا الباب بالكليّة؛ فإن الشيطان قد يأتي للعبد ويظهر له النميمة بمظهر النصيحة. فليغلق الإنسان على نفسه هذا الباب إذا لم يكن عنده تفريق صحيح وسليم.

ومن النصيحة ما جاء في الصحيحين: عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَاسًا فِي الْقِسْمَةِ، فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ، وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ، إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهُ اللهِ، قَالَ فَقُلْتُ: وَاللهِ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ، قَالَ:

فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ، ثُمَّ قَالَ: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ»، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ» قَالَ قُلْتُ: «لَا جَرَمَ لَا أَرْفَعُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا حَدِيثًا».

ولم يزجر النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود على نقله للخبر؛ لأن ذلك كان من قبيل النصيحة، فمعرفة المنافقين وفضح أمورهم هذه نصيحة للإسلام والمسلمين.

وهكذا، قد يكون الشخص يتعامل مع آخر يظن به الخير، وذاك الشخص ماكر يريد أن يمكر به، ويتحدث بأنه سوف يفعل به كذا، وسوف يمكر بفلان في كذا وكذا، فإن ذهبت إلى أخيك ونصحت له: "انتبه من فلان، سمعته يقول كذا وكذا"، فهذه نصيحة؛ والغرض منها أن تمنع المسيء من إساءته، وأن يسلم المسلم من مكر الماكرين.

ومما قيل في النميمة: من نم لك نم عليك، ومن نقل إليك خبر غيرك نقل خبرك إلى غيرك. فلا تثق بالنمام؛ الذي ينم لك بعد ذلك ينم عليك، والذي ينقل خبر الغير إليك سوف ينقل خبرك إلى الغير. فالسلامة أن تبتعد عن النمامين.

والنمام - كما عرفنا - مفسد، وإفساده أعظم من إفساد السحر. وقولنا: "النميمة أشر من السحر" أي من هذه الحيثية من حيث الإفساد، وإلا فإن السحر أخبث؛ لأن السحر كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، والنميمة كبيرة من كبائر الذنوب، فالسحر من هذه الحيثية أخبث من النميمة؛ لأنه كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، والنميمة كبيرة، لكن باعتبار التفريق والإفساد فإن إفساد النمام أعظم من إفساد الساحر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥٢) دارِ جـارَ السَّـوءِ بِالصَّـبرِ وإنْ ❁ لـمْ تجـدْ صَـبراً فَمـا أحَلـى النُّقَـلْ

الشرح:

(**دارِ جارَ السُّوءِ**): استعمل مع جار السوء المداراة، والمداراة بمعنى الملاينة وحسن الصحبة واحتمال الأذى وإظهار اللين، هذه المداراة.

فتعامل مع جار السوء بهذا كي تسلم من شره غالبًا، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ❁ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

لكن إن لم تنفع معه المداراة والملاينة، فقال: (**إن...لمْ تجدْ صَبراً فَما أحَلى النُّقَلْ**)، أي: انتقل من دارك إلى دار أخرى. فإن كنت مستأجرًا فاستأجر في موضع آخر، وإن كنت مالكًا فبع بيتك، وأرح نفسك وأرح قلبك.

يلومنني أن بعت بالرخص منزلي ... وما علموا جارا هناك ينغص
فقلت لهم كفوا الملام فإنما ... بجيرانها تغلوا الديار وترخص

وكما يقال: "الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق".

وجاء في حديث مرفوع إلَّا أنه لا يصح.

لكنَّه من حيث المعنى مستقيم. "الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق".

وامرأة فرعون طلبت الجار قبل الدار، فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]. قيل: طلبت الجار قبل الدار، وعينت موضع الدار، وأن ذلك يكون في الجنة.

فعلى كلٍ: جار السوء يستعمل الشخص معه المداراة، هذا هو الأصل إن تمكن من ذلك وأطاق ذلك، وإن لم يتمكن من ذلك فما أحلى النقل؛ أي: الانتقال من ذلك الموضع إلى موضع آخر.

وقد جاء عند الطبراني بإسناد حسن من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: "كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ، وَمِنْ زَوْجَةٍ تُشَيِّبُنِي قَبْلَ الْمَشِيبِ، وَمِنْ وَلَدٍ يَكُونُ عَلَيَّ رَبًّا، وَمِنْ مَالٍ يَكُونُ عَلَيَّ عَذَابًا، وَمِنْ خَلِيلٍ مَاكِرٍ، عَيْنَهُ تَرَانِي وَقَلْبُهُ يَرْعَانِي، إِنْ رَأَى حَسَنَةً دَفَنَهَا، وَإِذَا رَأَى سَيِّئَةً أَذَاعَهَا**». فكان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يستعيذ من جار السوء، ويستعيذ من المرأة السيئة التي تشيب زوجها قبل المشيب، ومن الولد السيء الذي يكون على أبيه رَبًّا -أي: سيدًا آمرًا ناهيًا، غير بار بوالديه، بل متعال عليهما-، ومن مال يكون عليه وبالًا في الدنيا وفي الآخرة، ومن خليل ماكر -أي صديق صاحب مكر- عينه تراني وقلبه يرعاني، فهو ملازم له يشاهد أموره ويلاحظ شؤونه، وقلبه يرعاه يريد السقطة منه والزلة، إن وجد حسنة دفنها، وإن وجد سيئة أذاعها.

والشاهد: أن النبي عليه الصلاة كان يستعيذ من جار السوء.

وجاء عند النسائي: من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ، فَإِنَّ جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحَوَّلُ**». فهذا من أشر الجيران وهو: جار السوء في أرض المقام، أي: في بلد

الإقامة، في الحضر. وأما جار البادية فإنه ينتقل، والمراد بذلك البدو أصحاب الخيام الذين ينتقلون من موضع إلى موضع لطلب العشب والماء، فلا يستقرون في موضع واحد، فهذا الجار أمره هين؛ لأنه ينتقل من موضع إلى موضع، لكن جار السوء في دار المقام، في موضع الإقامة، في الحضر، ضرره شديد، فيستعاذ منه ومن شره.

فهكذا يداري الشخص جاره إذا كان سيئًا، وهذا من أسباب إصلاح الجار غالبًا، فيحسن الشخص إلى جاره ما استطاع.

وفي حديث أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ**».

وهكذا جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ**».

وجاء أيضًا: «**فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ**».

فحث النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على إكرام الجار، وعلى الإحسان إليه.

وفي حديث عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَيُوَرِّثَنَّهُ**».

فأكثر جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من وصيته لرسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالجار، حتى ظن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه سيأتي الوحي بتوريثه كما يورث الأقرباء. «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَيُوَرِّثَنَّهُ**».

وفي مسلم: من حديث أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: إِنَّ خَلِيلِي ﷺ أَوْصَانِي: «**إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ، فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ**».

وكل هذا من الإحسان إلى الجيران.

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ**» ولو بهذا الشيء التافه: "فرسن شاة" وهو: قدمها، وفي الأصل يطلق على قدم البعير.

وهكذا يطلق على الحافر من الدواب، والمقصود بذلك المبالغة، أي ولو كان شيئًا يسيرًا.

فكل هذا من مداراة الجار: يداري الإنسان جاره إن كان سيئًا بهذه الأخلاق الحسنة، وإن كان محسنًا أيضًا يعاشره بالإحسان، وإن كان مسيئًا أيضًا صاحبه الصحبة الحسنة، واحتمل منه الأذى، ولاينه، وصبر على أذيته، فهذا هو الأصل.

فإذا علم الإنسان من نفسه عدم الصبر، فلينتقل وليرح نفسه من شر جاره.

لكن الصبر هو المقام الأول، وتحصل به الثمرة الحسنة غالبًا، ولا سيما إذا جمع بين الصبر والإحسان؛ فيصبر على أذى جاره ويحسن إليه، قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

والجيران يكثر فيهم الحسد، فتكثر فيهم الأذية إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ.

ويقال: إن رجلاً قال لسعيد بن العاص: والله إني لأحبك، فقال له سعيد بن العاص: ولما لا تحبني؟ ولست لي بجار ولا ابن عم؟! ولهذا يقال: الحسد في الجيران، والعداوة في الأقارب، فسعيد بن العاص يقول لذلك الرجل: كيف لا تحبني؟ ولست لي بجار؛ لأن الحسد في الجيران، ولا ابن عم؛ لأن العداوة في

الأقارب، يعني: أنت لست بجار ولا بقريب، فليس بغريب أن تحبني، فمحبتك لي ليس بالأمر الغريب؛ لأنك لست بجار فيحصل منك الحسد، ولا بقريب فتحصل منك العداوة.

وليست هذه بقاعدة مطردة، لكن لما كثر هذا الأمر صار هناك من أهل العلم من يتكلم بمثل هذا الكلام، وإلا هناك جيران ليس فيهم هذا الخلق السيء، وأقرباء أيضًا ليس فيهم هذا الخلق السيء: وهو خلق العداوة.

قال: (**فَمَا أَحَلَى النُّقَل**)، أي: الانتقال من ذلك الموضع.

وقد جاء عند أبي داود من حديث أبي هريرة بإسناد حسن وله شواهد تقوي معناه.

وجاء عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَشْكُو جَارَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ**» قَالَ: فَجَعَلَ النَّاسُ يَمُرُّونَ بِهِ فَيَلْعَنُونَهُ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لَقِيتُ مِنَ النَّاسِ! قَالَ: «**وَمَا لَقِيتَهُ مِنْهُمْ؟**» قَالَ: يَلْعَنُونِي! قَالَ: «**فَقَدْ لَعَنَكَ اللهُ قَبْلَ النَّاسِ**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنِّي لَا أَعُودُ، قَالَ: فَجَاءَ الَّذِي شَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ أَمِنْتَ أَوْ قَدْ لَعَنْتُ**». وهذا من هذا الباب (**فَمَا أَحَلَى النُّقَل**)، فهذا انتقل انتقالًا جزئيًا من داره إلى الطريق، فكان ذلك علاجًا لجاره السيء، فهذا من جملة الانتقال الذي يحصل به علاج للجارة.

والانتقال الآخر: لا يقصد بذلك علاج جاره، وإنما يريد أن يقي نفسه من شر جاره فينتقل إلى مسكن آخر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥٣) جَانِبِ السُّلطانَ واحذرْ بَطشَهُ ❁ لاَ تُعانِدْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ

الشرح:

نصح ابن الوردي رحمة الله عليه في هذا البيت بمجانبة السلطان، أي بالابتعاد عنه، وقد نصح بذلك أئمة الإسلام، وحذروا من الاقتراب من السلطان، وأن ذلك من أسباب الفتنة.

وقد جاء في ذلك حديث لا يثبت في المسند وفي غيره من حديث أبي هريرة: «ومن أتى أبواب السلاطين أُفْتِن»، لكن المعنى صحيح، صار عليه أئمة الإسلام وحذروا من ذلك.

وهناك من أهل العلم من ترخص بذلك إذا وجدت المصلحة الراجحة؛ فكان يؤمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر، أو إذا كان السلطان ممن عرف بالعدل والعلم، فقد جالس كثير من أهل العلم والفضل عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليهم، لأنَّه إمام عادل، فما كان من هذا القبيل فقد ترخص فيه جماعة من العلماء؛ إذا كان السلطان من أهل العدل والعلم والخير، أو دخل الشخص على السلطان لمصلحة راجحة من أجل أن يأمره بالمعروف وأن ينهاه عن المنكر، وما سوى ذلك، فالأصل هو الابتعاد؛ فإن الاقتراب من السلطان من أسباب الفتنة.

حتى قال سعيد بن المسيب رحمة الله عليه: "إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه؛ فإنه لص" أي يريد شيئًا من الدنيا.

وهكذا جاء عن سفيان الثوري إلا أنه قال: "إذا رأيتم القارئ يلوذ بالسلطان فاعلم أنه لص".

وكلام العلم في ذلك كثير.

ومن أشد الناس في ذلك الإمام أحمد رحمة الله عليه، فكان يحذر من ذلك غاية التحذير، وكان يبتعد عن السلاطين وعن الملوك؛ يريد أن يحافظ على دينه، وألا يفتتن بدنيا السلاطين.

ومن اقترب من السلطان تضرر غالبًا، وإن حصلت له شيء من الدنيا، غير أن المفسدة الحاصلة له أعظم من المصلحة التي يريد أن يجتنيها من الاقتراب من السلطان.

حتى قال بعضهم: "صاحب السلطان كراكب الأسد، يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف" أي: هو أشد خوفًا.

وهذا كلام صحيح فإن الناس يخافون منه لقربه من السلطان، لكنه هو أخوف من غيره من السلطان، والمُلْكُ -كما يقال- عقيم، والسلطان إذا اغتاظ من شخص أهلكه، فإذا دخل قلبه شيء من الشك في شخص سعى في إهلاكه، فمن اقترب منه يبقى في خوف ووجل، ولهذا يقال: ثلاثة لا أمان لهم: السلطان، والبحر، والزمان.

وبعضهم يضرب مثلاً للسلطان بالجبل الوعر الذي في أعلاه أنواع الفواكه والثمار، وهو مليء بالأفاعي والحيات والأسود، فالصعود إلى ذلك الجبل متعب، والبقاء أشق وأتعب؛ فإنه يبقى في موضع هلاك. وهكذا الصعود إلى السلطان ليس بالأمر الهين، فإن صعدت واقتربت من السلطان فلا تقترب منه

إلا بعد مشقة الأنفس، والبقاء مع السلطان أشق وأشد؛ فإنك تخشى على نفسك من الهلاك في كل وقت وفي كل حين.

قال بعضهم:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا ... فلا يكن لك في أفنائهم ظل

أي ابتعد عنهم وعن الاقتراب منهم.

ماذا تريد بقوم إن هم سخطوا ... جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا

أي: إن سخطوا عليك جاروا عليك وظلموك، وإن أرضيتهم ملوا منك ومن مجالستك لهم وقلوك.

وإن مدحتهم ظنوك تخدعهم ... واستثقلوك كما يستثقل الكل

أي: كما يستثقل الشيء الثقيل، فإن جاملتهم وقمت بمدحهم شكوا فيك، وأنك مخادع في هذا المدح، ولك المآرب والمقاصد السيئة. ولهذا قال:

فاستغن بالله من أبوابهم أبدا ... إن الوقوف على أبوابهم ذل

فمن أجل هذا نصح العلماء وحثوا على مجانبة السلطان؛ لما في ذلك من الشر والفتنة، ولأن كثيرًا من السلاطين فيهم ظلم وبغي وجور، فمن اقترب منهم كان عونًا لهم على ظلمهم وعلى بغيهم وعلى أمورهم المنكرة.

وقد روى المروزي في كتاب "الورع": عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَيْنَ الظَّلَمَةُ، وَأَعْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَأَشْبَاهُ الظَّلَمَةِ، حَتَّى مَنْ بَرَى لَهُمْ قَلَمًا، أَوْ لاقَ لَهُمْ دَوَاةً، فَيُجْمَعُونَ فِي تَابُوتٍ مِنْ حَدِيدٍ، ثُمَّ يُرْمَى بِهِمْ فِي جَهَنَّمَ**». والحديث ظاهره الصحة.

وقال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣]. فمن كان عونًا للظالمين حُشِر معهم، ولو أعانهم بالشيء اليسير، ولو لاق لهم دواة -أي: أصلح لهم الحبر الذي يكتبون به- أو برى لهم قلمًا، فيجتمع الظلمة وأعوان الظلمة في تابوت واحد، ويقذفون في نار جهنم - والعياذ بالله-.

فلا يكون الشخص عونًا للظالمين، قال تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

والركون بمعنى: الميل والمحبة، فمن مال إلى الظالمين وأحبهم كان شريكًا لهم.

وفي حديث كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَنَحْنُ جُلُوسٌ عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: «**سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ، وَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَيْسَ يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضَ**».

فحذر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الدخول عليهم، ومن تصديق كذبهم، ومن إعانتهم على ظلمهم.

(**لاَ تُعانِدْ مَنْ إِذْا قالَ فَعَلْ**) فإياك ومعاندة السلطان، فسايس السلطان مسايسة ولا تعاند السلطان. إذ كيف تعاند شخصًا إذا قال فعل؟! فما هنالك مانع يمنعه من البطش بك.

ويحكى عن معاوية وعن غيره أنه قال: "لا تُغضب السلطان؛ فإنه يغضب كالصبي، ويأخذ أخذ الأسد".

فيغضب كالصبي يعني: من أدنى شيء، فهو كالصبي الصغير تغضبه بأدنى شيء، لكن إذا انتقم وأخذ، انتقم انتقام الأسد، فبطشه شديد، وغضبه من الشيء التافه اليسير.

فالسلامة هو الابتعاد عنهم، ولا سيما إذا كان الشخص من أهل العلم والفضل. وقد قيل: "شرار الأمراء أبعدهم عن العلماء، وشرار العلماء أقربهم إلى الأمراء".

ولهذا الذين خرجوا على السلطان على مر التاريخ لم يقيموا مصلحة راجحة للإسلام والمسلمين على مر التاريخ، وإنما نالوا المفاسد العظام والشرور الكبار. ومن أجل هذا حذر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن الخروج عليهم، وعن منازعة السلطان، وأمر بالصبر والاحتمال لشرهم وإن استأثروا بالدنيا.

وفي حديث حذيفة في مسلم قال: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»؛ وذلك لما في منازعة السلطان ومعاندته من الشر العظيم والبلاء المستطير.

وحذر العلماء من الاقتراب من السلطان لأنَّهم ربما استغلوك لدنياهم، فيفسدوا دينك من أجل دنياهم. فلا تبع دينك لدنيا غيرك. ومن أشد العلماء في ذلك كما ما عرفنا الإمام أحمد رحمة الله عليه، فإنه ابتلي بالضراء فصبر، وحبس وجلد، وأوذي من جهة بعض السلاطين الذين دخلوا في فتنة الجهمية وصبر. وفي خلافة المتوكل أراد السلطان أن يقربه، فاشتد عليه الحال، ورأى أن هذا

أشد عليه من الفتنة السابقة، وكان يقول: "لو أن نفسي أو روحي بيدي لفعلت بها هكذا" أي لأخرجتها، وذلك من شدة ما وجده من الفتنة. فرأى أن هذا بلاء شديد ومحنة عظيمة، فوقاه الله عَزَّوَجَلَّ شر الفتنتين، ورفع الله عَزَّوَجَلَّ قدره ومنزلته. وهكذا كان أئمة السلف يبتعدون عن السلطان؛ ويطلبون بذلك السلامة للدين، بأن يسلم لهم دينهم.

وهذا سفيان الثوري، فقد كان الخليفة أبو جعفر يحبه ويجله، وهكذا المهدي، فناداه أبو جعفر إلى مجلسه، فجاء ودخل المجلس، فرأى بساط السلطان فركله بقدمه وجلس على الأرض. فقال له المهدي -أو قال له أبو جعفر-: "ما حاجتك؟" قال: "حاجتي ألا تدعوني حتى آتيك، هذه حاجتي"، فقال له المهدي: "حدث أمير المؤمنين بحديث عسى الله أن ينفعه بذلك الحديث".

فقال: "لست بقاص، فإن سألني و كان عندي جواب عن ذلك أجبته" يعني: ما أنا واعظ من الوعاظ، ولا أنا قاص من القصاص، أنا عالم من العلماء، من عنده مسألة يريد أن يستفتي بها سألني، فإن كان عندي علم أجبته، ولست بقاص.

فقال له: "حدث أمير المؤمنين بحديث لعل الله أن ينفعني به".

فروى له حديثًا عَنْ قُدَامَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَرْمِي جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ يَوْمَ النَّحْرِ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ صَهْبَاءَ، لَا ضَرْبَ، وَلَا طَرْدَ، وَلَا إِلَيْكَ إِلَيْكَ**»، أي لم يكن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جبارًا عنيدًا، ولم يكن شأنه شأن الملوك إذا قدموا عند زحمة الناس فإنَّه يزجر لهم الناس ويضربون حتى يوسعون للملك

والأمير، ولا "إليك إليك" أي: انصرف من هنا وانصرف من هنا، فقد جاء الأمير فافسحوا له حتى يرمي الجمار.

فأراد أن يعظه بهذه الموعظة، وأن يبين له حال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأنه كان متواضعًا، ولم يكن جبارًا، فكان يرمي الجمار مع الناس ويزدحم مع الناس، والناس يزاحمونه، وليس هناك من يضرب الناس بين يديه، ولا يزجر الناس، ولا "إليك إليك".

فقال له المهدي: "حدث أمير المؤمنين بحديث لعله أن ينتفع به".

فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥٤) لا تَـلِ الأحكـامَ إنْ هُـمْ سَـأَلُوا ❁ رَغْبَـةً فِيـكَ وَخَـالِفْ مَـنْ عَـذَلْ

الشرح:

(**لا تَلِ الأحكام**) أي: لا تكن قاضيًا للسلاطين، وابتعد عن القضاء؛ فإنهم يستغلونك في ظلمهم وفي باطلهم، فلا تكن من أعوان الظالمين.

والقضاء خطير، ولهذا جاء في حديث في السنن: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ وَلِيَ الْقَضَاءَ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ**».

وإذا ذبح الشخص بغير سكين فإنه يتألم أشد التألم، والمعنى أنه يهلك لكن بهلاك شديد، كالذي يقتل بالشنق والخنق أو بالحرق أو بالإغراق أو غير ذلك من القتلات الشنيعة المؤلمة الموجعة، فهو هالك، غير أن هلاكه بغير سكين فهو هلاك شديد.

وقال بعض العلماء: قال النبي عليه الصلاة «**بغير سكين**»؛ لأنه أراد هلاك الدين، ولم يرد هلاك الدنيا ولا هلاك البدن، فالسكين آلة لهلاك البدن، فلهذا قال «**بغير سكين**» أي أن هلاكه في دينه، وإن اتسعت له الدنيا، وهلاك الدين أشد من هلاك الدنيا.

فهذا الحديث فيه الترهيب من تولي القضاء، وإذا كان تولي القضاء عند أمراء ظالمين، هذا أشد، فالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حذر من تولي القضاء مطلقًا، فإذا كان قاضٍ لملوك ظلمة فالأمر أشد والفتنة أعظم، ولهذا كان من مضى من أئمة السلف يتعدون ويفرون إذا ما طلبوا للقضاء.

فأبو قلابة عبد الله بن يزيد الجرمي طلب للقضاء مع علمه وإمامته، فهرب وفر رحمة الله عليه.

وهكذا يذكر في ترجمة يزيد بن مرثد أنه طلب للقضاء، فتحايل على ذلك، فأخذ شيئًا من الخبز وجلس في الطريق وصار يأكل في الطريق، يتظاهر بقلة المروءة حتى يُعْفَى من القضاء، وكان ذلك سببًا في عفوه عن القضاء، ولم يكن هذا من خلقه، لكنه فعل ذلك يريد أن يستعفي من القضاء. وأشد من ذلك عبد الله بن وهب مع علمه وحفظه، لما طلب للقضاء تظاهر أنه مجنون حتى يفر من القضاء.

فشاهده ابن سعد فقال له: "لم لا تخرج للناس وتقضي بينهم بكتاب الله وبسنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟" فقال: "هذا هو منتهى عقلك؟!" فالقضاء فتنة، وفتنته عظيمة.

ويذكر أيضًا أن عبد الله بن وهب فر إلى بيت حرملة بن يحيى وتخبأ فيه فارًا من القضاء، فصار حرملة بن يحيى أروى الناس عن عبد الله بن وهب؛ لأنه مكث عنده فترة من الزمن فارًا من القضاء فاستغله حرملة، وكان يسأله عن الأحاديث ويدون ويكتب، فصار أروى الناس عن عبد الله بن وهب، فانتفع بفرار عبد الله بن وهب. وهكذا جماعة ممن مضى فروا، ومنهم من دعا على نفسه بالموت، كما ذكروا في ترجمة قاسم بن ثابت العوفي أنه طلب إلى القضاء فأبى، فجاءه والده وأراد أن يكرهه على القضاء إكراهًا،

فقال: "دعني استخير الله عَزَّوَجَلَّ ثلاثة أيام"، ثم مات في أثناء تلك الأيام الثلاثة، فقيل: دعا على نفسه بالموت، ورأى أن الموت خير له من الفتنة، فاستجاب الله عَزَّوَجَلَّ له.

وأخبار العلماء في ذلك كثيرة جدًا؛ وذلك لعلمهم أن هذا الأمر من الأمور الخطيرة التي حذر منها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ التحذير البالغ، وحذر من ذلك أئمة السلف.

وقوله: (**لا تَلِ الأحكامَ إنْ هُمْ سَأَلُوا... رَغْبَةً فِيكَ وَخَالِفْ مَنْ عَذَلْ**): أي لا تبالي بمن يلومك ممن همه الدنيا وشهوات الدنيا. وقد صار الناس في هذه الأيام يتسابقون على القضاء، ويدرسون الدراسات من أجل أن يتولوا القضاء، وربما دفعوا المال والرشوة من أجل القضاء مع جهل بالغ فيهم.

وهؤلاء الذين ذكرناهم علماء فضلاً خافوا على أنفسهم من القضاء، وفي أزماننا أناس جهال بكثير من أحكام الشريعة، لا علم ولا ورع ولا تقوى، وصاروا يتسابقون إلى القضاء مسابقة، ويدفعون الأموال الطائلة من أجل القضاء.

ومن أُكْرِه على القضاء إكراهاً، فإن الله يعينه. كما حصل لجماعة، فمن كان كذلك فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعينه ويحفظه.

وقد جاء في الصحيحين: من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَائْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ**».

وقد أخذها بعض من مضى من أهل العلم مكرهين، ومنهم شريك القاضي، أُكْرِه على القضاء إكراهاً، وكان يؤتى إليه بالشُّرَط والجند حتى يحضر إلى مجلس القضاء ليقضي بين الناس بالقوة، ثم اعتاد على ذلك فكان يذهب بغير جند وبدون إلزام، فجاءه سفيان الثوري فرحب به غاية الترحيب، فقال له سفيان الثوري: "أرأيت لو أنَّ امرأة وقفت بباب رجل ففتح الباب وجذبها إلى بيته وزنى بها بالقوة، فعلى من تقضي بالحد؟" فقال: "على الرجل؛ لأنها مكرهة".

فقال: "أرأيت في اليوم الآخر لو تزينت وتبخرت وتعطرت وتجملت.

ثم ذهبت إلى باب ذلك الرجل ففتح الباب وجذبها وزنى بها، على من تقيم الحد؟" فقال: "عليهما؛ لأنها قد علمت الأمر في المرة السابقة". فأراد سفيان أن يعظه، وكأنَّه يقول له: كنت يُؤتى لك بالشرط وتكره على ذلك إكراهاً، وكان

لك العذر، فما عذرك الآن؟ ثم انصرف عنه، يعني في المرة السابقة كنت تكره وتؤتى بالقوة إلى مجالس الحكم، وبعد ذلك صرت تمشي بنفسك، فما عذرك الآن عند الله عَزَّوَجَلَّ؟!

وينقل عن القاسم بن الوليد الهمذاني أنه حين طُلب للقضاء، كان يأخذ الزيت ويكتحل به، يتظاهر بخفة العقل، فَرُدَّ ونجا من القضاء بمثل هذا الفعل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥٥) إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ لِمَنْ ❁ وَلِيَ الأَحْكَامَ هَذَا إِنْ عَدَلْ

الشرح:

وفي هذا عبرة، يقول: (**إن نصف الناس أعداء لِمَنْ**) أي: لمن تولى القضاء، هذا إذا كان عادلاً في حكمه وقضائه. فكيف إذا لم يكن عادلاً؟! فأمره أشد وأخطر.

والمعنى: أنَّ السلامة لك ألا تلي القضاء؛ فإنه يكثر أعداؤك، ويكثر المتربصون بك. وبعض الناس إذا تولى القضاء فما يستطيع أن يخرج بمفرده لا إلى الأسواق، ولا إلى المسجد، وربما لا يذهب إلى المسجد بالكلية، ويبقى محبوسًا؛ فهو يحبس غيره وفي الحقيقة هو محبوس في بيته وفي خوف لكثرة الأعداء الذين حصَّلهم بسبب القضاء، فذاك يريد أن يقتله، وذاك يريد أن يدخل عليه شرًا بما استطاع، فيبقى خائفًا، قد كثر أعداؤه، وهذا إذا كان عادلاً، فكيف إذا كان ظالمًا.

ويذكر في ترجمة معاذ بن معاذ العنبري مع ثقته وحفظه وإمامته وديانته، أنَّه وليَّ على أهل البصرة، فكثر كارهوه ومبغضوه، وأكثروا من شكواه للخليفة، مع أنه من العلماء العدول، ومن الحكام العادلين، ومشهور بالحفظ والإتقان، وهو من أهل الحديث والعلم والخير، لكن كثر أعداؤه، فكاتبوا الخليفة حتى أنه استخفى من الناس خوفًا على نفسه، فعزله الخليفة لكثرة من عاداه، فلما عزل أظهروا الفرح والسرور، ونحروا النحائر ووزعوها للفقراء والمساكين، فأظهروا البهجة والسرور بذلك.

وهذا القاضي كان من أهل العلم والفضل والخير والصلاح، ومع هذا عادوه هذا العداء الشديد؛ لأنه لم يوافق أهواءهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥٦) فَهُوَ كَالْمَحْبُوسِ عَنْ لَذَّاتِهِ ❁ وَكِلا كَفَّيْهِ فِي الْحَشْرِ تُغَلّ

الشرح:

فهذا حال القاضي فهو: كالمحبوس عن اللذات، محبوس - كما قلنا - ببدنه في بيته، ومحبوس حبس آخر عن اللذات، فجمع له حبسان: محبوس لا يتمكن من الخروج إلا بحرس مع خوف شديد، ومحبوس عن اللذات؛ لأنه مشغول بالناس وبقضايا الناس ومشاكل الناس في ليله وفي نهاره، فهو محبوس عن لذاته وعن شهواته، غير متفرغ لشيء من شهواته ولذاته، فغير متفرغ لأهله ولا لأولاده ولا لأصحابه، ولا لغير ذلك من الأمور التي يحتاجها. ولو كان من أهل العلم، فلا يستطيع أن يتفرغ للعلم ولا لمذاكرته ولا لقراءته.

وهناك من تولى القضاء وساء حفظه، كشريك بن عبد الله النخعي كان حافظًا، فلما ولي القضاء ساء حفظه.

وقوله: (تُغَل) أي يداه يوم الحشر.

وقد جاء في المسند: من حديث أبي هريرة بإسناد حسن، وعند الدارمي بإسناد صحيح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «**مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَطْلَقَهُ الْحَقُّ أَوْ أَوْثَقَهُ**». فيأتي ويداه مغلولة إلى عنقه، سواء كان عادلاً أو ظالمًا، فيأتي على هذه الحال، وبعد ذلك فإمَّا أن يطلقه الحق الذي كان يقضي به، وإما أن يوبقه ظلمه، فلا خير في القضاء ولا الإمارة.

ومن أجل هذا فر العلماء؛ لأنهم أهل علم ومعرفة، فيعرفون المصالح والمفاسد، ويعرفون ما يضرهم وما ينفعهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥٧) إِن لِلـــنَّقْصِ وَالاسْـــتِثْقَالِ فِـــي ❁ لَفْظَـــةِ الْقَاضِـــي لَوَعظًـــا وَمَثْـــل

الشرح:

فالقاضي آخره حرف منقوص وهو الياء، والحرف المنقوص تنقص فيه بعض الحركات، وتستثقل بعض الحركات، فتثقل الضمة والكسرة، وتظهر الفتحة لخفتها، ولهذا يقال "منقوص".

وأما المقصور فهو المحبوس عن جميع الحركات الذي آخره ألف، فيقال له: "مقصور"، والمقصور بمعنى المحبوس، فتنحبس جميع الحركات وتتعذر جميع الحركات فيه.

وأما في المنقوص فيحصل فيه نقص، ولا يحصل حبس لجميع الحركات، فتستثقل الضمة والكسرة، وتظهر الفتحة لخفتها، وهذا إذا لم تكن الياء مشددة. أما إذا كانت مشددة فإن الحركات تظهر لخفتها، مثل "عليٌّ" تقول: جاء عليٌّ، ورأيت عليًّا، ومررت بعليٍّ، فتظهر الحركات لخفتها، كعلي، وصبي، وكرسي.

وهكذا إذا كان قبل الياء حرف ساكن تظهر أيضًا الحركات لخفتها، كظبْي تقول: جاء ظبْيٌ، ورأيت ظبيًا، ومررت بظبْيٍ، فتظهر الحركات، كظبي، وثدي، وشقي. فإذا كان قبل الياء حرف ساكن فتظهر الحركات، أو كانت الياء مشددة فإن الحركات تظهر أيضًا، وفيما سوى ذلك تظهر حركة الفتحة، وتستثقل الضمة والكسرة. فهذا هو المراد بقوله: (**إِن لِلنَّقْصِ وَالاسْتِثْقَالِ فِي لَفْظَةِ الْقَاضِي**)، فالقاضي آخره ياء، وهو حرف منقوص تنقص فيه الحركات.

قال: (**إِن لِلنَّقْصِ وَالاسْتِثْقَالِ**)، فهذا مما يوعظ به، وقد قيل: الأسماء قوالب المعاني، فلفظة: "القاضي" إذا تأملت فيها وجدتها من قبيل المنقوص، وهكذا القضاء نقص، والاسم المنقوص فيه ثقل، فدل ذلك على أن ولاية القضاء ولاية ثقيلة. فهذا من المعاني المستحسنة، وليس هذا بلازم في كل ما كان كذلك، لكن قد تحصل ملائمة بين الاسم وبين المسمى، ولهذا يقال: الأسماء قوالب المعاني. فالقاضي نقص وليس بكمال، والقضاء نقص وليس كمالاً، ولهذا حذر منه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأخبر: «**مَنْ وَلِيَ الْقَضَاءَ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ**». والقاضي حمل نفسه أمورًا ثقيلة، فهو في تعب وفي نكد وفي شدة في الدنيا، وهكذا في الآخرة إن لم يكن عادلاً في حكمه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥٨) لا تَــوَازِي لَــذَّةُ الْحُكْــمِ بِمَــا ❁ ذَاقَهُ الشَّخْصُ إِذَا الشَّخْصُ انْعَزَلْ
٥٩) فَالْوِلايَــاتُ وَإِنْ طَابَــتْ لِمَــنْ ❁ ذَاقَهَــا فَالسُّــمُّ فِــي ذَاكَ الْعَسَــلْ

الشرح:

هذا كلام حسن، فإن ألم الانعزال أشد من لذة تولي الحكم.

وقد جاء في البخاري من حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَإِنَّهَا سَتَكُونُ نَدَامَةً وَحَسْرَةً فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ».

فمن تولى الحكم فإنه يجد شيئًا من النعم والسرور في أمره وفي نهيه، وفي تعظيم الناس له، وفي هيبتهم له، وفي نفوذ أمره ونهيه فيهم، فيجد في ذلك شيئًا من اللذة والسرور إذا تولى الحكم، وهكذا ينال بعض الشهوات الدنيوية بسبب ذلك.

لكن كما قال النبي ﷺ: «فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ»، والطفل حين يتناول اللبن عند حاجته، يجد لذلك المتعة في تناوله له، ويسد حاجته به، وإذا ما فُطِم كان الفطام عليه شديدًا مؤلمًا.

وهكذا من تولى الأحكام، فإنَّه يجد اللذة والسرور إذا ما عُيِّنَ للحكم والقضاء، فإذا عُزِلَ وجد الألم والشدة والأمور الصعاب.

وهكذا قد يجد ذلك يوم القيامة، وهذا أشد وأعظم، فيجد لذة الحكم في الدنيا وشدائد ذلك في الآخرة، وقد يناله الألم في الدنيا وفي الآخرة، فتجتمع له

السيئتان والمصيبتان في الدنيا وفي الآخرة. «فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ».

ولذة الحكم لذة وهمية، كما ذكر ذلك العلامة ابن القيم رحمة الله عليه، فإن اللذات تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

لذة جثمانية أو قل بهيمية.

ولذة وهمية.

ولذة عقلية.

فاللذة الجثمانية أو البهيمية: لذة الأكل والشرب والجماع، وهذه ليس فيها كمال إلا من استعان بها في مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا مما يثاب عليه، وإلا ليست هي من كمال العبد؛ ولو كان ذلك من كمال العبد لكان الحيوان أكمل من الإنسان لكثرة أكله وشربه، ولكان الأنبياء أولى بذلك، فالإكثار من الأكل والشرب ليس بكمال عند العقلاء.

وهذه اللذة يقال لها اللذة الجثمانية أو البهيمية، فالبهائم تشارك الإنسان في ذلك، بل تشارك الإنسان بأعظم مما هو حاصل له منها؛ فإن أكل الحيوان وشربه أكثر من أكل وشرب الإنسان.

فهذه اللذة الأولى: الجثمانية أو البهيمية.

واللذة الثانية: اللذة الوهمية، وهي لذة الحكم والإمارة والتسلط على الناس. فهي لذة وهمية، فيرتاح ويلتذ القاضي والحاكم والسلطان برئاسته للناس وبهيبة الناس له، وبأن أمره نافذ فيهم وهكذا نهيه، فيجد في هذا لذة وسرورًا، مع أن ما فيها شدائد أعظم مما فيها من اللذة، وفيها من المحن والمشاق ما هو أعظم من

لذتها، والآلام التي فيها أعظم، فاللذة فيها مجرد أوهام. وما كان ضرره أكثر من نفعه على العبد، فهو مجرد أوهام فيرى أنه في لذة وهو في أوهام؛ فإن المشاق التي تحصل له أعظم، والمتاعب والآلام والشدائد والمحن أعظم من هذه الأوهام التي يلتذ بها.

واللذة الثالثة: اللذة العقلية، وهي اللذة بالعلم وبذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وبعبادة الله عَزَّوَجَلَّ كالصلاة والصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من أنواع القربات. فإن النفوس الصالحة تلتذ بهذه القربات وبهذه العبادات، وهي اللذة العقلية، وهي أكمل اللذات، وهي لذة الأنبياء والرسل وأتباع الأنبياء والرسل. وهذه هي الحياة الطيبة، كما قال بعضهم: "لو علم أبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف".

وقال بعضهم: "إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة".

وقال شيخ الإسلام: "ما يفعل أعدائي بي؟ إن جنتي وبستاني في صدري".

فهذه أعظم النعم وأكمل النعم وأتم النعم، وهذه الحياة الطيبة التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فهذه أقسام اللذات، ولذة الملك والقضاء والحكم والإمارة هي لذة وهمية، ليس لها حقيقة نافعة، بل هي من اللذات الوهمية، والضرر الحاصل فيها أعظم من هذه اللذات الوهمية، فهو كالذي يأكل العسل ويستلذ به وفيه السم القاتل، هكذا الولايات، فشأنها كشأن الذي يأكل العسل وفيه السم، فيأكل ويستلذ

ويظن أن في ذلك منفعة له وفيه عين الهلاك له، وكلما أكثر من أكل العسل كلما ازداد ضرره وقرب أجله. فهكذا الولايات مآلها إلى الهلاك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٠) نَصَبُ الْمنْصِبِ أَوْهِى جَلَدِي ❁ وَعَنَائِي مِنْ مَدَارَاةِ السَّفَلْ

الشرح:

والناظم ها هنا رحمة الله عليه يذكر حاله، فإنه تولى القضاء في حلب فترة من الزمن، ثم وعظه ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برؤية منامية، فترك القضاء وانعزل وعزل نفسه عن القضاء، وانشغل بالعلم والعبادة والخير، وقد أحسن فيما صنع.

فهو يتكلم عن أمر قد دخل فيه، وقد خبر ذلك الأمر وعلمه، ولم يتكلم في ذلك بتكلم الجاهلين، ومن دخل في الشيء وذاقه وعرف خطره وضرره، وليس هو كمن لم يكن كذلك. فهذه نصيحة من شخص مجرب للأمور، قد دخل في القضاء وعرف ما فيه من الضرر.

فقال: (**نَصَبُ المنصِبِ أوهى جَلَدي**) "**نَصَبُ المنصِب**" أي: تعب المنصب الذي تولى القضاء. (**أوهى جلدي**) بمعنى أنه أضعف صلابة جسمي، والجلد بمعنى الصلابة، فأوهاه بعد أن كان جلَدًا قويًا، فكانت عنده الجلادة في الخير وفي العلم والعمل، فلما دخل في سلك القضاء وتولى المناصب وجد الضعف فيه ظاهرًا بعد تلك الصلابة.

فقال: (**وَعَنَائِي مِنْ مُدَارَاةِ السَّفَلْ**) أي: ونصبي وتعبي من مداراة السفل، وهم من كان خسيسًا من الناس. فالسفل هم أخساء الناس، فيحتاج إلى أن يداري

هؤلاء القوم؛ فإن من تولى القضاء يجتمع عليه مثل هؤلاء، فيحتاج إلى أن يداريهم، سواء كانوا من عامة الناس أو كانوا من الأمراء والسلاطين ومن لهم مكانة في الدولة، فيحتاج إلى أن يداري هؤلاء، ومداراتهم فيها ما فيها من التعب.

فاختار رحمه الله السلامة لنفسه، وترك القضاء، وانشغل فيما يحتاج إليه رحمة الله عليه. فهذه النصائح التي أوردها ها هنا رحمة الله عليه من النصائح النفيسة الحسنة، ولم يتفرد رحمة الله عليه بمثل هذه النصائح، بل على هذا سار العلماء، وقد ذكرنا شيئًا من أخبارهم ومن قصصهم في هذا الباب، وذكرنا شيئًا أيضًا من أحاديث رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ المحذرة من هذا الأمر.

ولخص المؤلف رحمة الله عليه ما يتعلق بأمر تولي القضاء والمناصب تلخيصًا حسنًا، وشرح الأمر شرحًا جميلًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦١) قَصِّرِ الآمالَ في الدُّنيا تفُزْ ❁ فَدْليلُ الْعَقلِ تقصيرُ الأَمْلْ

الشرح:

(**قَصِّرِ الآمالَ في الدنيا**) فتقصير الأمل -كما ذكر رحمة الله عليه- من أسباب الفوز؛ فإن من قصر أمله في الدنيا عمل لآخرته وزهد في دنياه، ومن كان كذلك فاز بنيل المطلوب والنجاة من المرهوب، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. ومن قصر أمله استعد للموت، فجد واجتهد للدار الآخرة، فيكون بإذن الله عَزَّوَجَلَّ من الفائزين.

وطول الأمل هو الذي أهلك الناس، قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: ٣]، فهذا الذي أهلك من أهلك، وألهى كثيرًا من الناس، وصار الإنسان ينظر إلى من هو أطول منه عمرًا ويؤمل أن يعمر مثله، والأجل في الحقيقة قريب والأمل أبعد منه.

وقد جاء في البخاري: من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: خَطَّ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ وَقَالَ: «**هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ**». أي: من جميع الجهات، فلا مفر من الموت ولا فوت من الموت – «**أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ**»، فأمله ممتد وأجله قريب، فأمله تجاوز الأجل «**وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ**» وتلك الخطوط التي بجوار الخط الذي في وسط المربع هي الأعراض، قال: «**فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا**» والأعراض كالأمراض وغير ذلك من الأمور المقربة من الموت؛ فإن للموت أسبابًا، «**فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا**» أي لم يمت بهذا السبب مات بسبب الآخر، وإن لم يمت بالآخر مات بالسبب الثالث، فهكذا حال العبد: أمله ممتد وأجله قريب. فينبغي للعبد ألا يطيل الأمل، وأن يقصر الأمل.

وهكذا جاء في البخاري: من حديث أَنَسٍ قَالَ خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوطًا فَقَالَ: «**هَذَا الْأَمَلُ وَهَذَا أَجَلُهُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ الْخَطُّ الْأَقْرَبُ**» أي الأجل،

فالأجل هو الخط الأقرب، الأمل ممتد، والأجل أقرب من الأمل، فهو يأمل الآمال البعيدة، ويأمل ذلك الخط البعيد الممتد، وبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب، وهو الخط المعترض على الأمل الممتد.

فلا تكن طويل الأمل، بل قصر من الأمل حتى تكون مستعدًا للموت، ومستعدًا للدار الآخرة. وطول الأمل هو الذي ابتلي به أكثر الناس إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد جاء في البخاري: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَمَلِ**». فيكبر سنه ويشب في هاتين المسألتين، وكلما كبر سنه كلما تعلق قلبه بالدنيا، وهكذا طال أمله فيأمل الآمال البعيدة الطويلة وقد كبر سنه واقترب أجله. فطول الأمل مفسد ومضر ومهلك للعبد. فلهذا يقول: (**قَصِّرِ الآمالَ في الدنيا تفُزْ**) ومن طال عمره فينبغي أن يستعد للموت أكثر من غيره، وإن كان الأجل لا يفرق بين كبير وصغير، لكن من كبر سنه فهو أقرب إلى الأجل. وكما قيل:

كأن الفتى يرقى من العمر سلما *** إلى أن يجوز الأربعين وينحط.

فهذا حال العبد، (**كأن الفتى يرقى من العمر سلما**)، كأنه يصعد في سلم إلى أن يجوز الأربعين وينحط، فإذا وصل الأربعين يرجع إلى النزول، فإذا بلغ الأربعين انتهى تمامه ولم يبق إلا الانحدار إلى دار القرار. فالفتى كالذي يصعد في السلم يرتفع ويرتفع إلى أن يصل إلى الأربعين، ثم يبدأ بالانحدار بعد الصعود، فيبدأ بالانحدار إلى دار القرار.

وقد ذكر العلماء أن أول الضعف يبدأ من بعد الأربعين، وقبل ذلك يكون سن الصبا والشباب إلى الخامسة والثلاثين على قول بعض العلماء، ومن الخامسة والثلاثين إلى الأربعين، هو: زمن الوقوف أي وقوف القوة، وبعد ذلك بعد الأربعين يبدأ بالانحدار إلى الضعف شيئًا فشيئًا، فيضعف شيئًا فشيئًا إلى الستين، فإن ضعفه يشتد حينئذ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**».

وجاء في البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «**أَعْذَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً**». وأعذر الله عَزَّوَجَلَّ، أي: قطع عنه العذر بالكلية، فما له عذر بأن يقول مثلًا: يا رب لو عمرتني كذا وكذا لفعلت كذا وكذا، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

فللعبد أن يقصر الأمل، سواء كان كبيرًا أو كان صغيرًا، فلا يكون طويل الأمل. فطول الأمل مهلك، وهو الذي أهلك من مضى، قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقد جاء عند الترمذي وابن ماجه: من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَنَا وَأُمِّي نُصْلِحُ خُصًّا لَنَا، فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا عَبْدَ اللهِ؟**» قَالَ: قُلْتُ: خُصٌّ لَنَا نُصْلِحُهُ، فَقَالَ: «**الْأَمْرُ أَسْرَعُ مِنْ ذَلِكَ**».

وعند أبي داود عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: مَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا أُطَيِّنُ حَائِطًا لِي أَنَا وَأُمِّي، فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا عَبْدَ اللهِ؟**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَيْءٌ

أُصْلِحُهُ، فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَسْرَعُ مِنْ ذَلِكَ». يعني: هل تظنون أن تعيشوا إلى أن ينهدم ذلك البناء؟! هذا طول أمل، فالأمر أسرع من ذلك.

قال لهم ذلك وهم يصلحون جدارًا بطين خافوا من سقوطه، أو يصلحون بيتًا من قصب وخشب خافوا من دماره وسقوطه، فيعظهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويقول: «الْأَمْرُ أَسْرَعُ مِنْ ذَلِكَ»، فربما يأتيكم الأجل قبل سقوط هذا البناء. أي لا تطيلوا الأمل إلى هذا الحد.

قال: (فَدَلِيلُ العَقْلِ تَقْصِيرُ الأَمَلْ): فمن قصر أمله دل ذلك على رسوخ في عقله، فهذا هو العاقل في الحقيقة وهو الذي يبقى دائمًا مستعدًا للرحيل، ليس عنده طول أمل: سأفعل كذا بعد سنة، بعد سنتين، بعد عشر سنين، وتكون له مشاريع بعيدة المدى، وإنما يجعل الموت نصب عينيه، فيجد ويجتهد للدار الآخرة والانتقال من هذه الدنيا التي ليست بدار قرار.

والعبد فيها حاله كما قال النبي ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». هذا هو حال العبد في الدنيا، كأنه غريب أو عابر سبيل.

فمن قصر أمله حسن عمله، ومن طال أمله ساء عمله؛ ولهذا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ طول الأمل عن الكافرين، الذي ألهاهم هو طول الأمل، قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٠]. وهذه واردة في عاد، وفي نصيحة نبيهم هود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لهم، فقال لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ أي بكل موضع مرتفع تبنون آية، قيل: هي أبراج الحمام العالية المرتفعة، وقيل غير

ذلك. ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ قيل: المراد بذلك القصور العالية الرفيعة، وقيل: المقصود بذلك مصانع المياه، وقيل غير ذلك، فكانوا يبنون البنايات العظيمة الشامخة القوية، وكأنهم مخلدون في هذه الدنيا، وقد علم الجميع، أنَّ مآلهم ومآل غيرهم إلى الموت.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٢) إِنْ مَــنْ يطلِبُــهُ الْمَــوتُ عَلَــى	غِــرَّةٍ مِنــــهُ جَـــدِيرٌ بِالوَجَـــلْ

الشرح:

(**إن من يطلبه الموت على... غِرَّة**) أي على غفلة، فالموت يطلب العبد على غفلة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]. فلا يدري الإنسان متى يأتيه الأجل، والأجل مكتوب لابد منه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. فالأجل محدود، لكنه يأتي على غِرَّة أي على غفلة، فلا يدري الإنسان متى يأتيه الموت.

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. فيهرب الإنسان ويبتعد عن الموت وعن أسبابه بكل الطرق، ولابد أن يأتيه، قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. أي ولو كنتم في قصور عالية رفيعة، وقيل: في حصون منيعة، فلا مفر من الموت، ففي أي موضع كنتم جاءكم الموت، فلا مفر منه ولا خلود لأحد، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]. فيفر

الإنسان منه ويهرب، ويجد أن الموت أمامه قد لاقاه، فلا يستطيع الفرار منه، فهو ملاقيه ولا بد منه، ومدركه ولا بد. وهذا شيء يعلمه العالم والجاهل والذكر والأنثى والصغير والكبير، وإنما هي الغفلة، بل يعلم ذلك المؤمن والكافر؛ لأن هذا شيء مشاهد محسوس ملموس مرئي، فلا يمكن أن ينكره حتى من كان كافرًا، لكن الغفلة هي التي طغت؛ يقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ويقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِينْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. ما خلد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فكيف يخلد غيره؟ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ولهذا حث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على تذكر الموت وعلى زيارة المقابر، وقد جاء في حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي**». فزوروا القبور؛ فإنها تذكر الموت.

وفي حديث بريدة في مسلم: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا، -وعند أبي داود زيادة- فَإِنَّ فِي زِيَارَتِهَا تَذْكِرَةً**». فهي ديار الآخرة ومساكن الموتى.

قال: (**جَدِيرٌ بِالوَجَلْ**) أي جدير بالخوف، لكن الغفلة هي التي طغت على القلوب. فلو حُكِمَ على شخص بالإعدام، وصدر الحكم بذلك، وقيل للشخص: "قد حُكِمَ عليك بالإعدام، وفي أي وقت ربما يُنادى باسمك وتُقتَل"،

فإنه يبقى خائفًا وجَلاً، لا يدري متى يُنادى باسمه. وهذا الحكم هو مكتوب في الحقيقة على جميع الخلق: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، فمآل جميع الخلق إلى الموت، ولا يدري الإنسان متى يأتيه الموت، وإذا جاءه فإنه لا يتأخر ولا يتقدم، لكنها الغفلة التي طغت على القلوب بسبب الذنوب والمعاصي.

وهذا من أصلح ما يكون للعبد وهو أن يتذكر الموت؛ فإن ذلك من أسباب الزهد في الدنيا، وعدم الانشغال بها وبشهواتها، ومن أسباب الإقبال على الآخرة والعمل لها. فهو من أنفع الأدوية للقلوب؛ فتذكر الموت من أنفع الأدوية للقلوب، فهو من أعظم المواعظ، وكفى بالموت واعظًا، ومن أعظم الزواجر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٣) غِبْ وزُرْ غبا تزِدْ حُبًّا فَمنْ ❁ أكثرَ التَّردَادَ أَقصاهُ المَلَلْ

الشرح:

وفي هذا البيت يحث ابن الوردي رحمة الله عليه على الغِبِّ: "أن يَزُرَ غِبًّا" أي يزر يومًا ويترك الزيارة يومًا أو أيامًا.

والمعنى: لا تُكْثِر من الزيارة. (**تَزِدْ حُبًّا**) أي عند المزور.

وقد جاء في ذلك حديث حَبِيبِ بْنِ مَسْلَمَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا**»، والحديث له طرق كثيرة، وجاء عن جماعة من الصحابة، وهناك طرق واهية شديدة الضعف، وهناك طرق لا بأس بها يمكن أن تتقوى بالشواهد.

فجاء من حديث أبي هريرة عند الطبراني في الكبير وفي الأوسط، وجاء أيضًا حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند الخطيب في تاريخه وعند غيره، وجاء

أيضًا من حديث علي بن أبي طالب عند الأصبهاني في أمثال الحديث، وجاء أيضًا من حديث معاوية بن حيدة في الفوائد، وهي أحاديث ليست شديدة الضعف يمكن أن يقوي بعضها بعضًا، وهناك أحاديث واهية وشديدة الضعف، من أجل هذا قواها وحسَّنها بعض العلماء. ولا يبعد تقوية الحديث المرفوع إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا».

وزيارة الإخوان من الأعمال الصالحة ومن القربات وهذا إذا كانت من أجل الله عَزَّوَجَلَّ. ومعلوم ما جاء في الموطأ وفي مسند الإمام أحمد من حديث معاذ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ».

فمن زار أخاه من أجل الله عَزَّوَجَلَّ فقد وجبت له محبة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه فضيلة عظيمة.

وهكذا ما جاء في مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، «أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ».

وهذه أيضًا فضيلة عظيمة فيمن انتقل من موضع إلى موضع، ومن قرية إلى قرية من أجل الزيارة، وهي زيارة من أجل الله عَزَّوَجَلَّ، لا لمآرب الدنيا ولا لشهواتها ولا لملذاتها، وإنما من أجل الله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الأسباب التي ينال بها العبد محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لكن هذه الزيارة لا ينبغي أن تكون على وجه الإملال، وإنما كما قال: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا» فتكون في أوقات دون أوقات، إلا إذا عظمت الصداقة، وكانت المصلحة راجحة، ولم تكن في هذه مفسدة، فلا بأس في ذلك، كما حصل للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقد جاء في الصحيح من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: "أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان في كل يوم يزور الصديق في الغدو العشي" يعني: يزور مرتين، وهذا في مكة قبل الهجرة، فيأتي مرتين إلى الصديق في كل يوم في الغدو وفي العشي، لما في ذلك من المصالح العظيمة، ولا سيما في ذلك الوقت، ولعظيم الألفة والمحبة بين النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبين الصديق، فهذه المفسدة لا وجود لها، بل هذه مكرمة للصديق، ولا وجود لهذه المفسدة، وهي مفسدة السآمة، وما سوى ذلك، فالأصل أن الإنسان لا يكرر الزيارة، وإنما يجعلها في أوقات متفرقة.

فمن كان مُكْثِرًا في الزيارة (أَقْصَاهُ المَلَلُ) أي أبعده. فالإنسان إذا أكثر من الزيارة حصل له خلاف المقصود، فتنفر من ذلك النفوس والقلوب، فيقصيه الملل؛ لأنه يُمَلُّهُ بكثرة الزيارة، فيحصل خلاف المقصود، فتحصل النفرة والوحشة. فلهذا تكون الزيارة – كما ذكر ابن الوردي رحمة الله عليه – غِبًّا.

وهذه نعمة أن الزيارة المحمودة التي دل عليها الحديث الذي حصل فيه نزاع بين العلماء: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا».

وقال بعضهم:

عليك بإقلال الزيارة إنها تكون إذا دامت إلى الهجر مسلك

أي إذا كثرت صارت إلى الهجر مسلكًا.

فـإني رأيـت القطـر يسـأم دائمـا ويسـأل بالأيـدي إذا هـو أمسـك

إذا كان القطر -أي المطر- مستمرًّا سَئِمَهُ الناس.

قال: "ويسأل بالأيدي إذا هو أمسك" أي: إذا أمسك عن النزول اتجه الناس إلى الاستسقاء، ودعوا الله عَزَّوَجَلَّ أن ينزل عليهم الغيث. وأمَّا إذا كان المطر مستمرًّا كَرِهَه الناس وتأذوا به. ولما نزل المطر أسبوعًا في زمن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- كما جاء في حديث أنس - قال: فجاء في الأسبوع الآخر أو في الجمعة الأخرى من يطلب من النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يدعو ربه برفع المطر، وفي الجمعة الأولى أرادوه وطلبوه.

فهكذا من أكثر الزيارة فإنه يحصل منه الملل، ويُسْأَمُ منه، وتحصل بسبب ذلك نفرة في النفوس. لكن إذا زار في يوم وأجَّل الزيارة إلى بعد يوم أو أيام، فإنه يأتي بوجه جديد محبوب، تشتاق النفوس إليه. وكما قال بعضهم:

وطـول بقـاء المـرء في الحـي مخلـق لديباجتيـــه فـــاغترب تتجـــدد

فـإني رأيـت الشـمس زيـدت محبـة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وهي وإن كانت واردة في شأن السفر والانتقال **لكن الشاهد من ذلك**: أن من غاب ثم جاء فإنه يرجع بوجه جديد، والمُكْثِر يأتي بوجه خَلِق لا ينظر الناس إليه ولا يريدون النظر إليه.

:فاغترب تتجدد" ومعنى "لديباجتيه" أي لجانبي وجهه؛ ولهذا من اغترب ثم جاء، فإنَّك ترى كل الناس ينظرون إليه: جاء فلان، جاء فلان، وذاك ينظر وذاك ينظر، فيكون محل نظر الناس. وإذا أكثر عندهم البقاء ما ألتفت إليه أحد: فإذا

سأل أحدهم الآخر فقال: "هل جاء فلان إلى المسجد؟" فإنَّه يقول: "لا أدري"، والآخر يقول: "لا أدري"، وهذا "لا أدري".

لكن المغترب إذا جاء، فاسأل عنه من شئت فإنه يجيبك بأنه قد رآه. ولهذا قال: "فاغترب تتجدد".

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٤) لاَ يَضُرُّ الْفَضلَ إِقلالٌ كَما ❁ لاَ يَضرُّ الشَّمسَ إطْباقُ الطَّفَلْ

الشرح:

والمعنى: أن من له الفضائل، وأكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بالمكرمات والفضائل، كأن يكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بالعلم والعمل والأخلاق الحسنة والاستقامة على الدين ظاهرًا وباطنًا، فإنه لا يضره بأن يكون مُقِلاً في الدنيا، فإن قيمة العبد في عمله وفي تقواه لله عَزَّوَجَلَّ، لا في ماله، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥].

وقال: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٦].

فالعبد إذا كان صاحب فضائل في العلم والعمل والخلق، وكان قليل المال، قليل الدنيا، فإن ذلك لا يضره.

قوله: (**لَا يَضُرُّ الشَّمْسَ**) وهكذا الشمس لا يضرها (**إطباق الطِّفْل**) أي انبساط الظلمة على النهار حتى تغطي تلك الظلمة النهار، والطِّفْل هو إقبال الليل على النهار بظلمته. فالشمس لا يضرها هذا الكساء المظلم، فالشمس تغيب ويكسوها ذلك الكساء الأسود المظلم الذي هو الليل، فهل ذلك الكساء المظلم أضر بالشمس؟ الجواب: لا، لم يضرها.

فالشمس هي الشمس، فلا يضرها إطباق الطِّفْل أي انبساط الظلمة وتغطيتها لها. وكما قال القائل:

إن كان ثوبي دون قيمته فلس ... فلا فيها نفس دون قيمتها الإنس

لأن نفسه شريفة، وإن كانت ثيابه لا تساوي الفلس، لكن نفسه شريفة، فلا يضره ذلك الكساء الذي غطاه.

فثوبك بدر تحت أنواره الدجى ... وثوبي ليل تحت أطماره شمس

والأطمار المراد بها الثياب البالية، فشبه نفسه بالشمس، وشبه ثيابه بالليل، فإن ذلك لا يضر الشمس. (وثوبي ليل تحت أطماره شمس) وأمَّا ثوبك فهو بدر أي ثوبك جميل، لكن (تحت أنواره الدجى) تحت أنواره الظلمة، فثوبك جميل لكنك مظلم قبيح، وأما أنا فثوبي وإن كان ليلًا لكن تحت أطماره شمس. فالعبرة بالجوهر لا بالملبس، فالعبرة بدين العبد وبعلمه وباستقامته وبتقواه لله عَزَّوَجَلَّ، وليس العبرة بما يلبس من الثياب.

لا يضر الفضل إقلال كما * لا يضر الشمس إطباق الطِّفْل.

وينقل عن الإمام الشافعي رحمة الله عليه أنه كان يقول:

علي ثياب لو تقاس جميعها ... بفلس لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس لو يقاس ببعضها ... نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٥) خُذْ بِنَصْلِ السَّيْفِ وَاتْرُكْ غِمَدَهُ ❁ وَاعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَى دُونَ الْحُلَلْ

الشرح:

أي: لو كان غمد السيف - وهي الجَفْنَة التي يدخل فيها السيف - لو كانت رديئة، هل يَضُرُّ السيف؟ الجواب: لا.

فإذا كان السيف من السيوف القاطعة القوية، هل يتضرر بغمده؟ وهل ينتقص بنقصان غمده؟ الجواب: لا ينتقص ولا يتضرر بذلك. **فلهذا قال**: (**خُذْ بِنَصْلِ السَّيْفِ**) فانظر إلى النصل، لا تنظر إلى الجَفْن، (**وَاتْرُكْ غِمَدَهُ**) فالغمد قد يكون رديء والسيف قوي قاطع، فالعبرة بالسيف، لو كان الغمد جميلًا وحسنًا والسيف رديئًا، فما هي الفائدة من هذه الزينة؟! فهذه الزينة لا تنفع.

وكما قال الشافعي:

وما ضر نصل السيف إخلاق غمده ... إذا كان غضبا حيث وجهته فرا

أي: ما يضر السيف إخلاق غمده، إذا كان الغمد - وهي الجَفْنَة - رديئة بالية، فما يضر ذلك السيف إذا كان غضبًا أي إذا كان قاطعًا، "حيث وجهته فرا" أي قطع. فلا تنظر إلى الغمد، وانظر إلى السيف.

وهنا قال: (**خُذْ بِنَصْلِ السَّيْفِ وَاتْرُكْ غِمْدَهُ**) أي لا تبالي بالغمد، فالقيمة قيمة السيف لا قيمة الغمد، والشأن شأن السيف لا شأن الغمد. فمراد ابن الوردي رحمة الله عليه أنك تنظر إلى جوهر الشخص، ولا تنظر إلى ظاهره، فلا تنظر إلى ملبسه وإلى تنعُّمه باعتبار الظاهر، وانظر إلى دينه وإلى خلقه وإلى تقواه.

ولا تكن ممن يغتر بالظاهر كما قيل:

إذا لَبِسَ الحِمَارُ ثِيَابَ خَزٍّ ... لَقَالَ النَّاسُ وَيْلَكَ مِنْ حِمَارِ

فبعض الناس ينظر إلى الظاهر ويغتر بالظاهر، فلو زينت حمارًا بأنواع الزينة لَفُتِنَ الناس به. فهؤلاء الذين لا يفهمون هم الذين يغترون بالظواهر ولا يدركون البواطن.

قوله: (**وَاعْتَبِرْ فَضْلَ الفَتَى**)" أي انظر إلى فضل الفتى في دينه، في خلقه، في تقواه لله عَزَّوَجَلَّ، (**دُونَ الحُلَلْ**) أي لا تنظر إلى الزينة الظاهرة، إلى ملبسه الظاهر. فقيمة الناس ليست باعتبار ما يلبسون من اللباس الظاهر، وإنما بتقواهم لله عَزَّوَجَلَّ وبدينهم وبعلمهم وبحسن أخلاقهم.

فهذا مراد ابن الوردي رحمة الله في هذين البيتين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٦) حُبُّكَ الأَوْطَانَ عَجزٌ ظَاهِرٌ ❁ فَاغْتَرِبْ تلقَ عَنْ الأَهْلِ بَدَلْ

الشرح:

(حُبُّكَ الأَوْطَانَ عَجْزٌ ظَاهِرٌ) أي ضعف ظاهر، فإذا كان الشخص يحب الوطن الذي عاش فيه ووُلِد فيه، بحيث يمتنع من السفر لمقاصده ومآربه ومصالحه، فهذه المحبة مذمومة، وهي دالة على الضعف، وهو ضعف ظاهر.

والإنسان يحتاج إلى السفر والاغتراب لنيل المصالح الدينية والدنيوية، فيحتاج إلى السفر لأداء ما افترض الله عليه من الحج والعمرة، وقد يحتاج إلى السفر في الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يحتاج إلى طلب العلم، فيرحل إلى العلماء في أطراف البلاد ويأخذ عنهم العلم، وقد يحتاج إلى السفر والاغتراب من أجل التكسب، فيتكسب ما أحل الله له من الطيبات. فالعبد يحتاج إلى الاغتراب ويحتاج إلى السفر، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]. وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]. وقال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ﴾ [النساء: ١٠١]. وقال: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

فلا يبقى الإنسان متعلقًا ببلده، ويترك ما يحتاج إليه من السفر والاغتراب، فهذا عجز ظاهر كما ذكر ها هنا.

فإذا اغترب الإنسان وجد بدلاً عن أهله وعن أحبابه، فيلقى العلماء، ويلقى الصالحين، ويعاشر أناسًا ما عرفهم قبل ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٧) فَبِمُكْثِ الْمَاءِ يَبْقَى آسِنًا ❁ وَسُرَى الْبَدْرِ بِهِ الْبدرُ اكْتَمَلْ

الشرح:

ثم بين رحمة الله عليه: أن الماء إذا بقي في موضعه تغير، فيبقى آسِنًا أي: متغيرًا، لكنه إن جرى فإنه يطيب. فالماء الجاري كالعيون والأنهار أطيب من الماء الباقي؛ لأن الماء الدائم يتغير، والماء الجاري لا يتغير. فهكذا الشخص إن بقي في موضعه ربما حصل له شيء من الفساد والنقص في دينه وفي دنياه.

قال: (وَسَرَى البَدْرِ بِهِ البَدْرُ اكْتَمَلْ) وسري البدر أي سير البدر به البدر اكتمل. فالبدر يسير في الليل، ويحصل له بذلك الاكتمال شيئًا فشيئًا.

وهكذا العبد إن سار وسافر في مصالحه، فيحصل له الكمال في دينه وفي دنياه.

ورحم الله من قال:

ما في المقام لذي عقل وذي أدب ... من راحة فدع الأوطان واغترب

سافر تجد عوضًا عمن تفارقه ... وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب

والأسد لولا فراق الأرض ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب

والشمس لو وقفت في الفلك دائمة ... لملها الناس من عجم ومن عرب

والبدر لولا أفول منه ما نظرت ... إليه في كل حين عين مرتقب

والتـــبر كـــالتبر ملقـــى في أماكنــه　　　والعـود في أرضـه نـوع مـن الحطـب
فـــإن تغـــرب هـــذا عـــز مطلبـــه　　　وإن تغـــرب ذاك عـــز كالـــذهب

و"التبر" الذي هو الذهب، "كالتُّرْب" أي كالتراب ملقى في معادنه.

و"العود" أي عود الرائحة.

فـــإن تغـــرب هـــذا عـــز مطلبـــه　　　وإن تغـــرب ذاك عـــز كالـــذهب

فالتبر إذا خرج من معدنه وتغرب فإنه يصفى ويصير ذهبًا مطلوبًا، والعود إذا أخذ من موضعه وانتقل عن موضعه صار شيئًا طيبًا يستعمل في البخور.

وهكذا قال بعضهم:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا　　　وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
إزالـــة هـــم واكتســـاب معيشـــة　　　وعلـــم وآداب وصـــحبة ماجـــد

فيستفيد هذه الفوائد: إزالة هـم، واكتسـاب معيشـة، وعلـم، وآداب، وصـحبة.

فإن قيل: في الأسفار ذل ومهنة　　　وقطع الفيافي وارتكاب الشدائد.

فإذا قيل ذلك واعتذر بهذا العذر، فأجاب عن ذلك بقوله:

فَمَـوْتُ الفَتَـى خَيْـرٌ لَـهُ مِـنْ حَيَاتِـهِ　　　بِـأَرْضٍ هُـوَ مَـا بَـيْنَ وَاشٍ وَحَاسِـدِ

ثم ختم المؤلف رحمة الله عليه هذه القصيدة النافعة الطيبة المباركة بهذه الأبيات، **فقال**:

٦٨) أَيُّهَـــا الْعَائِـــبُ قُـــولي عبثـــًا	❁	أن طيـــبَ الْـــوردِ مُـــؤذٍ لِلجُعـــلْ

الشرح:

فبعد أن ذكر تلك الأبيات التي مرت فيما مضى، وهي أبيات نفيسة نافعة، فيها الحث على مكارم الأخلاق، والنهي عن الأخلاق السافلة الهابطة، وفيها

أنواع الحكم، قال رحمة الله عليه: "أيها العائب قولي عبثًا" أي: أنَّ من عاب ما ذكره فيما مضى فهو عابث، والعابث هو اللاعب؛ لأن ما قاله من جملة الحكمة ومما جاءت به الشريعة ودلت عليه أدلتها، فمن عاب قولاً صحيحًا فإن عيبه من قبيل العبث واللعب، وهو دليل على ضعف عقله وعلى فساده.

(**إن طيب الورد مؤذٍ للجُعَل**) والجِعل -بكسر الجيم- دويبة، وتجمع على جعلان، وهي دويبة مشهورة تحب الأذى وتكوِّر الأذى وتقوم بادخاره في حجرها، فإذا وجدت الأذى أسرعت إليه وقامت بتجميعه وتكويره، وهي دويبة ذات ستة أرجل، ولها جناحان، ولها سنام مرتفع، وهي سوداء اللون، وتمشي القهقرى ولا تخطئ بيتها.

فالجعل يحب الأذى، ويقال له "حارس الإنسان"، فيبقى يراقب الإنسان، فإذا رآه قام واتجه لقضاء الحاجة أسرع خلفه؛ لأن قوته الأذى. فهذا الجعل -ذكر العلماء- أنه يموت من الرائحة الطيبة، فيتأذى بالرائحة الطيبة وقد يموت، فيتأذى من العطر ومن طيب الورد، ويستطيب الأذى وهو قوته. فهنا يقول ابن الوردي رحمة الله عليه: (**أَيُّهَا العَائِبُ قَوْلِي عَبَثًا ...إِنَّ طِيبَ الوَرْدِ مُؤْذٍ لِلْجُعَلْ**) إذا تأذيت من أبياتي السابقة، وهي أبيات نفيسة نافعة، يستحسنها العقلاء والعلماء، ويستطيبها أصحاب الفضائل والأخلاق الكريمة، ويكرهها أصحاب العقول الفاسدة وسَفَلة الناس، فإن تأذيت منها فليس هذا بغريب؛ فإن الجعل يتأذى بالرائحة الطيبة، وأنت شبيه به، تتأذى من النصائح النافعة، ومن الكلام الحسن، ومن الحث على مكارم الأخلاق والنهي عن الأخلاق السافلة، فشأنك كشأن الجعل الذي يتأذى من الشيء الطيب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٩) عَـدِّ عَـن أسـهُمِ قَـولي وَاستَتِرْ ❁ لاَ يصـيبك سَـهمٌ مِـن ثُعَـلْ

الشرح:

(**عَدِّ عن أسهم قولي**) بمعنى تجاوز وانصرف عن أسهم قولي. فشبه قوله بالأسهم التي ترمى فتصيب وتقتل أو تجرح.

فهذه الأبيات هي كالأسهم لسفهاء الناس ولضعفاء العقول، وهي كالورد الطيب والمسك لأصحاب العقول النيرة، ولأصحاب الفضائل والمكرمات.

فانصرف عن أسهم قولي وابتعد عنها، واستتر بجدار أو بشجر أو بترس أو غير ذلك.

(**لا يصيبنك سهم من ثُعَل**) أي من رامٍ مجيد الرمي، و(**ثُعَل**) يشير رحمة الله عليه إلى عمرو بن المسبِّح من بني ثعل، وهو من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كان يقال عنه "أرمى العرب"، وصار مضرب مثل للرمي.

والمعنى: أن سهامي صائبة لا تخطئ، فأنا شبيه بثعل أي بعمرو بن المسبِّح من بني ثعل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧٠) لاَ يَغُرَّنَّـكَ لَـيْنٌ مِـنْ فتـىً ❁ إنَّ للحيـاة لينـاً يُعتـزَلْ

الشرح:

أي: لا تغتر بلين الفتى، فالحيات فيها لين، لكنه لين يُعْتَزَل، فإن اقتربت من الحية وأردت أن تؤذيها أهلكتك. فالحية فيها لين لكنها قد تؤذيك وقد تقتلك.

فلا تغتر بلين الشخص؛ فالشخص قد يكون عنده لين في موضعه، وعنده الشدة في موضعها، وهو ها هنا يخبر عن نفسه رحمة الله عليه، وأنه وإن كان عنده لين في الأخلاق، فلا تغتر بذلك، فتتجرأ عليه بسبب لينه، وتظن أنه ملازم للين في جميع أحواله، فإن اللين المحمود ما كان من غير ضعف، وأما اللين مع الضعف فليس بمحمود. فإن الله عَزَّوَجَلَّ قال في كتابه: ﴿وَإِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]. فلم يصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بالضعف.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ففيهم لين في موضع اللين، وفيهم شدة في موضع الشدة. فكون الشخص يعاملك باللين والرفق، لا تغتر بذلك فتجترأ عليه بما لا يليق؛ فصاحب اللين قد تكون به شدة في موضعها المناسب، فمن لان لك في طبعه وفي خلقه، فلا تغتر بذلك فتتجاوز حدك معه، فمن أحسن إليك في الخلق فأحسن إليه في الخلق، ولا تتعد عليه وتتجاوز حدك في ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧١) أَنـا مِثـلُ الْمـاءِ سَـهَلٌ سَـائِغٌ	وَمتـى أسـخن آذى وقَتَـلْ

الشرح:

شبه نفسه رحمة الله بالماء. والماء سهل سائغ، أي يجري بسهولة في الحلق، إذا صببت الماء إلى حلقك فإنه يجري بسهولة في حلقك، وليس كالطعام؛ فالطعام فيه شيء من الصعوبة، فيحتاج إلى مضغ قبل بلعه، وأما الماء فإنه يدخل في الحلق بكل سهولة ولين، **فيقول عن نفسه**: أنا سهل لين، خلقي ذلك،

لكن من غير ضعف، فمن تخلق معي بالأخلاق الحسنة، فأنا سهل لين معه، فمن عرف قدري ومنزلتي عرفت قدره ومنزلته. ومن أساء إلي، فإني القوي المنتصر، لست بالضعيف الذي لا ينتصر لنفسه إن ظُلِم. فالماء سهل سائغ، لكن إن أسخنته فإنه يؤذي وربما يقتل، وهكذا هو، إن أُسْخِنَ وأُغْضِبَ وتُعُدِّيَ عليه، فإنه ينتقم لنفسه بالقول والفعل كما قال الله تعالى. ﴿وَإِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧٢) أَنا كَالخيَزور صَعبٌ كسْرهُ ❁ وَهُوْ لَدْنٌ كَيفَ ما شِئتَ انفتَلْ

الشرح:

(**أنا كالخَيْزُور**) -بضم الزاي- أي كالخيزران. والخيزران معروف. فشبه نفسه بالخيزران، فالخيزران صعب كسره، وهو لَدُن أي لين، (**كيف ما شئت انفتل**) أي انصرف إلى أي شيء، إلى جهة اليمين أو إلى جهة اليسار، فتستطيع أن تصرفه على أي وجه أردت، فهو لين، لكن إن أردت أن تكسره صعب عليك كسره. وهكذا يصف الناظم نفسه رحمة الله عليه أنه لين سهل، لكن من أراد أن يتعدى عليه فهو أصعب ما يكون.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧٣) غَيـرَ أني في زَمـانٍ مَـنْ يكـنْ ❁ فيـهُ ذو مَـالٍ هُـوَ المـولَى الأَجـلْ

الشرح:

والمؤلف رحمة الله عليه يتكلم على زمنه وعلى نظر الناس في ذلك الزمن الذي به يزنون الناس، وهذا أيضًا هو نظر الناس في هذه الأزمان وقبل هذه الأزمان؛ فأصحاب الدنيا يعظمون أهلها، فمن كثر ماله عظموه، ومن قل ماله احتقروه وازدروه. فصاحب المال هو "المولى الأجل" أي هو السيد الأعظم عندهم. والمولى يأتي على معنى السيد، والأجل بمعنى الأعظم. وهؤلاء هم أصحاب الدنيا. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. ولم يقل "أغناكم". ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]. فالميزان عند الله عَزَّوَجَلَّ التقوى، والكريم عند الله هو التقي.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧٤) وَاجـبٌ عِنـد الْـورى إكرامُـهُ ❁ وَقليـلُ المـالِ فـيهم يُسـتقلْ

الشرح:

أي: أمر متحتم لازم عند الورى -أي عند الخليقة- إكرامه، أي إكرام صاحب المال. (**وقليل المال فيهم يُستقل**) أي من قل ما له، يُسْتَقَلُّ ما عنده. ولازم ذلك أنهم يحتقرونه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧٥) كُـلُّ أهـلِ العصـرِ غُمـرٌ وَأَنَـا ❁ مِـنهُمُ فَـاترُكِ تَفَاصِـيلَ الجُمَـلْ

الشرح:

(كُلُّ أهلِ العصرِ غُمرٌ) والغمر -بضم الغين- هو من لم يجرب الأمور لجهله. والناظم رحمة الله عليه حين عمم لم يحسن في تعميمه، وذلك لأنَّه موجود في كل زمان أهل العلم والفضل والخير، وأهل الفطنة والذكاء والبصيرة.

وعن ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». فالخير لا يزال موجودًا في الأرض إلى قيام الساعة، أي إلى قرب قيامها.

(وأنا منهم) وهذا من تواضعه، ومن ازدرائه بنفسه، أنه لم يزكِّ نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]. فتواضع وأزرى بنفسه رحمه الله.

وفي حديث أبي هريرة في مسلم: أَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ». فالمتواضع رفيع عند الله عَزَّوَجَلَّ، وعند المؤمنين.

وفي حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ». فالتواضع منقبة ورفعة للعبد، ومكرمة في الدنيا والآخرة.

(**فاترك تفاصيل الجمل**) أي اترك البحث والتنقيب والتبيين، وهو قد أجمل في كلامه فخذ الكلام بإجماله، ولا تبقَ تبحث وتنقب عن التفاصيل، خذ الأمر على سبيل الإجمال، ولا تبحث تفاصيل الأشياء، فلا تبحث عن الأسباب التي من أجلها وصف نفسه وأهل زمنه بذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧٦) وَصلاةُ اللهِ ربي كُلَّما ❁ طَلَعَ الشَّمسُ نهاراً وَأَفَلْ

الشرح:

ثم ختم هذه المنظومة النافعة المباركة بالصلاة على رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: (**وَصلاةُ اللهِ ربي كُلَّما... طَلَعَ الشَّمسُ**): ولا إشكال في قوله (**طَلَعَ الشَّمسُ**)، فإن الشمس -كما يقول العلماء- مؤنث غير حقيقي، والمؤنث غير الحقيقي يجوز في الفعل التأنيث وعدم التأنيث، تقول: "طلع الشمس" و"طلعت الشمس"، إلا إذا تقدم الاسم على الفعل فإنه يجب تأنيثه، فإذا قيل: "الشمس" لا يقال "طلع" وإنما يقال "طلعت"، فإذا تقدم الاسم على الفعل وكان من قبيل المؤنث، سواء كان مؤنثًا حقيقيًا أو مجازيًا، فلا بد من التأنيث، فيقال: "الشمس طلعت"، ولا يقال "الشمس طلع".

لكن إذا تقدم الفعل جاز الأمران، فيقال: "طلع الشمس" و"طلعت الشمس"، ولا إشكال في ذلك. لكن في قوله بعد ذلك: "وأفل" هذا موضع الإشكال، فقال: "وأفل" ولم يقل "وأفلت"، مع أن الشمس تقدم ذكرها، وإذا

تقدم ذكرها فالفعل لابد أن يؤنث، فيقال: "الشمس أفلت". لكن لو تقدم الفعل فيصح أن يقال: "أفل الشمس" وأن يقال: "أفلت الشمس"؛ لكن لما تأخر الفعل، فإن الأصل هو التأنيث، فيقال: "طلعت الشمس نهارًا وأفلت".

لكنه هنا قال (**وأفل**)، فإن قيل: لعله عطف "أفل" على "النهار"، أي "وأفل النهار"، فهذا لا يستقيم؛ لأنه يصير من قبيل عطف الفعل على الاسم، والفعل لا يعطف على الاسم إلا إذا كان الاسم في قوة الفعل، فإذا كان اسم فاعل أو اسم المفعول في قوة الفعل، فيعطف الفعل على الاسم، مثل ﴿صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ فـ "صافات" اسم فاعل أي: يَصْفُفْنَ وَيَقْبِضْنَ، فإذا كان الاسم في قوة الفعل كاسم الفاعل صح العطف، وإلا لا يصح العطف. فالذي دعاه في ذلك - فيما يظهر - هي الضرورة الشعرية من أجل أن توافق القافية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧٧) لِلَّذِي حَازَ العُلَى مِنْ هَاشِمٍ ❁ أحمَدَ المُختَارِ مَنْ سَادَ الأَوْلْ

الشرح:

فنبينا ﷺ هو الذي حاز العلا من هاشم، أي: حاز المراتب العالية.

وفي حديث واثلة بن الأسقع في صحيح الإمام مسلم: قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**».

قال: (**الذي حاز العلا من هاشم... أحمد المختار**) وقد اختاره الله عَزَّوَجَلَّ واصطفاه وفضله واجتباه. (**من ساد الأول**) فهو سيد الأولين والآخرين.

وفي **الصحيحين**: من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وفي رواية لمسلم قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ**».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧٩) وعلى آلٍ وصحبٍ سادتٍ ❁ ليس فيهم عاجزٌ إلا بطل

الشرح:

ليس فيهم موصوف بالعجز والضعف، وإنما هم موصوفون بالبطولة والشجاعة، فهم أبطال، وليسوا بعاجزين، فهم أبطال وشجعان، والبطل هو الشجاع. فأصحاب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وآله هم سادات الناس، وهم أهل البطولة، والتاريخ يشهد لهم بذلك، فليسوا بأهل العجز والضعف، بل هم أهل الإقدام والبطولة والشجاعة، وتاريخهم شاهد بذلك.

الخاتمة

بهذا نكون قد انتهينا من هذه القصيدة النافعة المباركة، وهي **لامية ابن الوردي**، وكان الانتهاء منها في ليلة الخميس الثاني من شهر ذي الحجة لعام ست وأربعين وأربع مئة وألف من الهجرة، وكان الابتداء في ثلاثة شوال من نفس العام. وهي قصيدة نافعة عظيمة النفع، فيها من الحكم والآداب والنصائح المفيدة النافعة، فرحمه الله وغفر له.

الفهرس

مقدمة..... ٥
المقدمة..... ٦
ترجمة مختصرة لابن الوردي..... ٧
متن القصيدة..... ٨
شرح القصيدة..... ١٣
الخاتمة..... ٢١٧
الفهرس..... ٢١٨
فهرس القصيدة..... ٢١٩

فهرس القصيدة

م	شطر البيت	الصفحة
١	اطْرَحِ الدُّنيا فَمنْ عَادَاتِها	١٢٧
٢	اطلب العِلمَ وَلاَ تَكسَلْ فَمَا	٧٢
٣	اَعتَبر نحَن قَسَمنَّا بَيَنَهُمُ	١٢٠
٤	اعتزلْ ذِكرَ الأَغَاني والغَزَلْ	١٣
٥	أَعذْبُ الأَلْفَاظِ قَولي لَكَ: خُذْ	١١٣
٦	أُكْتُم الأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنَىً	١٤١
٧	إنْ أهنأ عِيشةٍ قَضَّيتُها	١٩
٨	إِنْ جَزتْني عَنْ مَديحِي صِرتُ في	١١٠
٩	إِن لِلنَّقْصِ وَالاسْتِثْقَالِ فِي	١٨٤
١٠	إِنْ منْ يطلِبهُ المْوتُ عَلىٰ	١٩٥
١١	إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ لِمَنْ	١٨٢
١٢	أَنا كَالخيَزور صَعبٌ كسْرهُ	٢١١
١٣	أَنَا لاَ أَخْتَارُ تَقبِيلَ يدٍ	١٠٧
١٤	أَنا مِثلُ المْاءِ سَهلٌ سَائغٌ	٢١٠
١٥	انظُمِ الشِّعرَ وَلاَزِمْ مَذْهَبِي	٩٥
١٦	إِنما الْوردُ مِنَ الشَّوكِ وَمَا	١٣٩
١٧	أيْ بُنيَّ اسمعْ وَصَايَا جَمعَتْ	٦٩
١٨	أَيُّ كَفٍّ لَمْ تَنَلْ مِمَّا تُفِدْ	١٣٣
١٩	أَينَ أَرْبابُ الحِجَىٰ أَهْلُ النُّهىٰ	٦٤

م	شطر البيت	الصفحة
٢٠	أَينَ عادٌ أَينَ فِرعَونُ وَمَنْ	٥٩
٢١	أَينَ مَنْ سَادوا وشَادوا وبَنَوا	٦٣
٢٢	أينَ نمُرودُ وكنعان ومَنْ	٥٨
٢٣	أَيُّهْا الْعَائِبُ قُولي عبثًا	٢٠٧
٢٤	بَيْنَ تَبْذِيرٍ وَبُخْلٍ رَتْبَةٌ	١٥١
٢٥	جَانِبِ السُّلطانَ واحذرْ بَطشَهُ	١٧٢
٢٦	جَمِّلِ المَنطِقَ بالنَّحو فَمنْ	٩١
٢٧	حَارتِ الأَفْكارُ في حكمه مَنْ	٥١
٢٨	حُبُّكَ الأوْطانَ عَجزٌ ظَاهِرٌ	٢٠٥
٢٩	خُذْ بِنَصْلِ السَّيْفِ وَاتْرُكْ غِمَدَهُ	٢٠٣
٣٠	دارِ جارَ السَّوءِ بِالصَّبرِ وإِنْ	١٦٧
٣١	سيُعيدُ اللهُ كُلاً مِنهمُ	٦٥
٣٢	صدِّقِ الشَّرعَ وَلاَ تركنْ إِلىٰ	٤٦
٣٣	عَدِّ عَن أسهُمِ قَولي وَاستتِرْ	٢٠٩
٣٤	عَيشةُ الرَّاغبِ في تحَصِيلِها	١٢٨
٣٥	غِبْ وزُرْ غبا تزِدْ حُبًّا فَمنْ	١٩٧
٣٦	غَيرَ أَني أَحمدُ اللهَ عَلىٰ	١٤٠
٣٧	غَيرَ أني في زَمانٍ مَنْ يكنْ	٢١٢
٣٨	فَاتركِ الحْيلَةَ فِيهَا وَاتَّكِلْ	١٣٢
٣٩	فَالْوِلايَاتُ وَإِنْ طَابَتْ لِمَنْ	١٨٦
٤٠	فَبِمُكثِ الْمَاءِ يَبْقَىٰ آسِنًا	٢٠٦
٤١	فَهوَ عُنوانٌ عَلَىٰ الْفَضلِ وَمَا	٩٥

م	شطر البيت	الصفحة
٤٢	فَهوَ عُنوانٌ عَلَىٰ الْفَضلِ وَمَا	١٠١
٤٣	فَهُوَ كَالْمَحْبُوسِ عَنْ لَذَّاتِهِ	١٨٣
٤٤	في ازدِيادِ العِلمِ إرغْامُ العِدىٰ	٨٧
٤٥	قَدْ يسُودُ المرءُ مِنْ دُونِ أبٍ	١٣٨
٤٦	قَصِّرِ الآمالَ في الدُّنيا تفُزْ	١٩٠
٤٧	قِيمةُ الإنْسانِ مَا يُحسنُهُ	١٤١
٤٨	كُتِبَ الموتُ علىٰ الخَلقِ فكمْ	٥٦
٤٩	كُلُّ أهلِ العصرِ غُمرٌ وَأَنَا	٢١٣
٥٠	كَمْ جَهولٍ بَاتَ فَيها مُكثراً	١٣٠
٥١	كَمْ شجاعاً لم يَنلْ فيها المُنىٰ	١٣١
٥٢	لاَ تخُضْ في حَقِ سَاداتٍ مَضَوا	١٥٣
٥٣	لاَ تَقُلْ أَصْلي وَفَصلي أَبداً	١٣٤
٥٤	لاَ تَقلْ قَدْ ذَهَبتْ أربابُهُ	٨٤
٥٥	لا تَلِ الأحكامَ إنْ هُمْ سَأَلُوا	١٧٨
٥٦	لا تَوَازِي لَذَّةُ الْحُكْمِ بِمَا	١٨٦
٥٧	لاَ يَضُرُّ الْفَضلَ إقلالٌ كَما	٢٠١
٥٨	لاَ يَغرَّنَّكَ لَيْنٌ مِنْ فتىً	٢٠٩
٥٩	لِلذِّي حَازَ العُلىٰ مِنْ هَاشِمٍ	٢١٥
٦٠	لَيْسَ مَا يَحْوِي الْفَتَىٰ مِنْ عَزْمِه	١٢٤
٦١	لَيسَ منْ يَقطعُ طُرقاً بَطلاً	٤٢
٦٢	لَيسَ يخَلُو المْرءُ مِنْ ضدٍّ وَلَو	١٥٩
٦٣	مَاتَ أهلُ الْفَضلِ لم يَبقَ سِوىٰ	١٠٥

م	شطر البيت	الصفحة
٦٤	مِلْ عَنْ النَمَّامِ وازجُرْهُ فَمَا	١٦٣
٦٥	مُلكُ كِسرىٰ تُغني عَنهُ كِسْرةٌ	١١٩
٦٦	نَصَبُ الْمنْصِبِ أَوْهِىٰ جَلَدِي	١٨٩
٦٧	واترُكِ الغادَةَ لاَ تحفلْ بها	٢١
٦٨	واتَّقِ اللهَ فَتقوْىٰ اللهِ مَا	٣٨
٦٩	وَاجبٌ عِند الْورىٰ إكرامُهُ	٢١٢
٧٠	وَاحتَفِلْ للفقهِ في الدِّينِ وَلا	٧٧
٧١	وَادَّرِعْ جَدًّا وَكَدًّا وَاجْتَنِبْ	١٤٥
٧٢	وَافتكرْ في مُنتهَىٰ حُسنِ الْذَّي	٢١
٧٣	وَاهجُرِ الخْمَرةَ إنْ كُنتَ فتىً	٢٤
٧٤	وَاهْجُرِ النَّومَ وَحصِّلهُ فمنْ	٨١
٧٥	وَتَغَافل عَنْ أُمورٍ أنه	١٥٥
٧٦	ودَعِ الذِّكرَىٰ لأيامِ الصِّبا	١٨
٧٧	وَصلاةُ اللهِ ربي كُلَّما	٢١٤
٧٨	وعلىٰ آلٍ وصحبٍ سادتٍ	٢١٦